الكابتن

وقصص أخرى

الكابتن

وقصص أخرى

قصص قصيرة

كارم عبد الغفار

مبعوث
للنشر والتوزيع
نحو أدب راقٍ

إهداء

إلى «عزبة صادق»

تلك البقعة الخضراء الصغيرة المنسية على أطراف «البحيرة».. إلى غيطانها وترعتها وأجرانها وجدرانها ووجوه أهلها الطيبين.. إلى ترابي وأترابي والجامع وعائلتي وأخوالي ومشاغباتي الخوالي.

وبشكل خاص..

أهديها إلى شقيقي النبيل «محمود عبد الغفار عوض السعيطي» صاحب الهمة والبصمة والسيرة الطيبة..

الكابتن

إنها مباراته الأخيرة.. النجم سيودع الملاعب خلال ساعات.. اضطره قطار العمر القاسي وحكم اللياقة الجائر أن ينسحب من تلك الحياة، ما أقسى أحكام الكرة! فاللاعب يشيب إذا تخطى الثلاثين!

(آه.. لولا كيد العزّال لانتظرت سنوات في أرض الملعب.. فالجماهير لا تزال تعشقني.. وقدمي مستعدة للعطاء)

لكن ومن أدراه إن بقي هل ستظل أقدامه وفية له؟ وهل ستظل الكرة تطيع أوامره؟. تذكر ذاك اللاعب الصاعد الصغير، جف لعابه وتعكر مزاجه أكثر فضغط على أسنانه يفرغ شحنة انزعاجه..

(هذا الوغد المدّعي.. ينتظر اللحظة التي أغادر فيها الملعب بفارغ الصبر.. يحلم أن يختطف مكاني.. طالما جلس في الاحتياطي ينتظر أن أسقط مصابًا أو جثة هامدة)

ثم ينفض النجم ذلك الهاجس عن ذهنه، فلا يريد لشيء أن يعكر صفوه أو يربك أعصابه في تلك الساعة بالذات..

(أنا شيء وهو شيء.. مهما كان تألقه بعدي.. فأنا عطائي لا يقارن إنني أول لاعب يجعل مباراة اعتزاله في مباراة رسمية)

نهائي الكأس دائمًا يصحبه ضجيج دعائي له مذاق خاص، اختاره الكابتن موعدًا لاعتزاله ؛كي يكون بصمة لا ينساها ناديه،ولا ينساها منافسوه ،ولا تنساها الجماهير.. نزل النجم أرض الملعب

وهو يتوقع استقبالًا حافلًا يليق بتاريخه الذي سيكتب نهايته الآن، وبالفعل انتفضت الجماهير واقفة تؤدي التحية باحترام مع دخوله أرض الملعب.. وانطلق الصفير والتصفيق..

(هل يجاملونني مجاملة موظف سيغادر إلى المعاش.. أم أنا بالفعل نجمهم؟.. ترى من سيحصد تلك التحية بعدي؟)

رفع يده يشير بها إلى رأسه تعبيرًا عن امتنانه للجماهير الوفية، وعينه حائرة بين الدمعة والبسمة..

(ما أجمل أصواتكم ! كيف سأصبر على البعاد؟)

تواتيه فكرة العودة وسحب ورقة الاعتزال كلما رأى المستطيل الأخضر.. خاطرة يمر طيفها سريعًا وتلقي السلام في سلام، فماذا عليه لو أنه تراجع عن قراره، ولبى نداء الجماهير؟

(هم بالفعل يصيحون ويبكون في كل مناسبة كي أبقى بينهم)

سيكون أول لاعب في عصره يعلن يوم اعتزاله أنه تراجع عن الاعتزال!

(يا لبلاهتي! إن بقيت سيتصيدون لي الأخطاء.. سيترصدون لي الكبوات؛ليقولوا حصان عجوز يستحق الرصاصة)

أسقط تلك الفكرة المراهقة من رأسه، إنه الوقت المناسب للاعتزال ووداع المستطيل والكاميرات.. ينتبه إلى القرعة التي يجريها الحكم، وبناء عليها سيختار ملعب البداية.. يحالفه الحظ دائمًا ويختار اليمين تيمنًا.. يتحرك إلى مركز الوسط كي يبدأ

بلمسته التي يصيح معها الجماهير.. إشارة الكابتن تزين ذراعه منذ سنوات، وتضعه في مركزه الطبيعي بين الأحباب والأعداء..

(تُرى هل يتركونها لي كتذكار؟)

انطلقت صافرة البداية للمباراة المصيرية له ولناديه، إنه يطمح أن يحرز هدفًا في الدقائق الأخيرة يزين بها ذيل تاريخه؛ فكلما انتصر فريقه بعد ذلك أو حتى هزم، سيذكرونه ويقولون قد ظل الكابتن النجم يسجل أهدافًا حتى آخر دقيقة في آخر مباراة..

تصفيق الجمهور يربكه بقدر ما يسعده، فهذا التصفيق يعني أمرًا مباشرًا «سجل» «أحرز» «أنقذ».. وهذا التصفيق سينتقل بعد ساعات إلى شخص آخر بالتأكيد سيكون هذا الشاب الصاعد الطموح.. يتخيله يقفز أمامه يخطف الكرة قبل أن يحرزها ويسجل هو ليخطف أبصار الجماهير، بل إنه يقفز أمامه على المنصة وهو يتسلم الكأس الأخير.. يهز الكابتن رأسه ويسقط ذلك الخاطر السيء..

(له الحق في الحلم والطموح)

حاول النجم أن يشغل رأسه وقدمه بمعركة المباراة التي احتدمت.. الكرة في طريقها إليه.. الجماهير تتأهب لتشجيع البطل الذي سيرحل بعد قليل.. للأسف.. أفلتت الكرة من تحت قدمه وذهبت للخصم.. تصلب الكابتن مكانه محرجًا ولم تسعفه لياقته كي يستردها.. بلع بقايا لعابه من حلقه الجاف وأشار بيده يعتذر لزملائه وللجماهير التي صفقت له مشجعة وربما مشفقة..

(الخطأ وارد والسهو مباح.. لكنهما اليوم محرمان)

انتبه للشاب الصاعد إنه يؤدي أداء رائعًا.. ياللهول! إنه يراوغ بمهارة.. الجماهير الخائنة تصفق له.. يرددون اسمه..

(الوغد يصر أن يحجب الأضواء عني.. أن يخطف الكاميرا مني)

ثم يهرش الكابتن في رأسه:

(من حقه.. نعم من حقه.. لكن ليس هذا اليوم)

مرر الشاب كرة عرضية طارت متجهة نحو الكابتن.. انتبه.. لا تحتاج منه إلا أن يعترضها برأسه فتسكن الشباك راضية مطمئنة، انتفضت الجماهير.. فالجماهير تحب أن تراهما مشتركين في كرة واحدة.. الكابتن وخليفته.. لكن الكرة تخدع رأس الكابتن وتمر في سلام إلى خارج الملعب.. يبلع الكابتن صدمته و يتحايل على حاله..

(تبًّا له.. إنه يتعمد إحراجي.. أرسلها بعيدة وأوحى للجمهور أنها لي)

أسرع الكابتن خلف الكرة ليأتي بها من خلف الخط، متخفيًا من همسات بعض الجماهير التي بدأ يسمعها أو يتوهم سماعها.. فقال يعترف لنفسه:

(الكرة جاءت في المكان المناسب واللحظة المناسبة.. لكنني متوتر وركبتاي لم تحسنا رفعي.. عليّ أن أهدأ)

رغم ضياع الكرة لكن بدا أن الجماهير قد أعجبت بها.. أو لعلهم يحيون الشاب الصاعد الذي أدى ما عليه.. يستلم الكابتن الكرة هذه المرة من منتصف الملعب يراه هناك.. الجماهير تصيح لتنبه الكابتن أن يرسلها إلى خليفته كما يلقبونه.. انتبه الكابتن إلى مكانه..

(بالفعل هذا المراوغ يقف في الموقع المناسب.. لكن حتى لو أحببت أن أمررها له ربما لا تصل.. وربما يتعمد إضاعتها كي يظن الجمهور أنني أسأت التمرير)

لمح أحد لاعبي الخصم قادمًا من الخلف، اضطر أن يقرر قراره ويرسلها مضطرًّا في وجهتها إلى الشاب الصاعد، فكانت - كما توقع – قصيرة للغاية، لكن الشاب قفز إلى الأمام بشكل رائع كي يتفادى خطأ الإرسال من الكابتن، فالتقطها في الهواء على صدره ثم انحاز بها إلى الخلف مراوغًا ثم اتجه إلى المرمى..

(كارثة لو أحرز الهدف.. ماذا سيكون حالي؟ كيف سأواجه الجمهور.. إنه يريد أن يمسح تاريخي)

أغمض الكابتن عينيه لحظة فتحها على ضجيج الاستاد بالهتاف..

(يهتفون لمن؟ بالتأكيد له.. إنه صاحب الهدف)

اضطر النجم أن يحتضن الشاب الذي قفز إلى صدره وقبل رأسه.. زاد ارتباك النجم وضعف أداؤه بقية الشوط.. الكرة في الغالب مخطوفة والجماهير تنتظره أن يفعل شيئًا..

(كلا قد فعلت الكثير هم يعلمون ذلك)

في بداية الشوط الثاني استعاد الكابتن رباطة جأشه واستطاع أن يمرر كرات رشيقة نال بها التصفيقات الحارة، لكنه لم ينل بعد ما يريد..

(الوقت يمر والتاريخ يمسك بالقلم)

استلم الكابتن الكرة.. استدار ليبدأ هجمة.. تعثرت الكرة تحت قدمه.. اختُطفت من أمامه ومُررت في هجمة مرتدة.. اختراق لصفوف فريقه.. تمريرة طويلة.. استلام جيد.. تصويب قاتل.. هدف التعادل.. حاول الكابتن أن يسد نافذة التأنيب التي تقول بأن بداية الخطأ كان من عنده..

(أنا صانع ألعاب.. أهداف الخصم خطأ الدفاع)

ثم داهمه خاطر جيد أراح صدره قليلًا، فهدف الخصم يعني التعادل، والتعادل يلغي هدف الشاب الصاعد فكأنه لم يكن، والآن الجماهير في انتظار من يحرز هدف الفوز.. في انتظاري أنا.. ثم أفاق الكابتن على وخز ضميره منزعجًا.

(كيف أفكر بهذه الطريقة! هل أتمنى هزيمة فريقي؟! يا لي من أحمق! كيف ألوم الصاعد على حلمه؟!. ألا يكفيني أنهم يسمونه خليفتي؟!)

أوشكت المباراة على الانتهاء والكابتن لم يحرز الهدف المنتظر، والتعادل قد يتبعه هزيمة فريقه.. وهزيمة فريقه تعني

ضياع الكأس، وضياع الكأس يعني أن هذه المباراة ستسجل ضده.. وستكون نهاية سيئة سيخجل من ذكرها..

الجماهير تصرخ وتهتف باسمه وباسم الصاعد.. افعلا شيئًا.. أحرزا هدفًا..

(الصاعد أمامه فرص كثيرة كي يكسب ثقة الجماهير.. لكن أنا ليس أمامي سوى دقائق)

وصلت الكرة إلى قدم الكابتن..

(اكتب يا تاريخ)

استلمها ببراعة وأوقفها تحت قدمها لحظة.. ارتج الاستاد إنه يشعر أنها الفاصلة، الكابتن أفاق، إنه كان يخفي مهاراته كي يبهرنا في الدقائق الأخيرة كعادته، وبالفعل راوغ بمهارة.. اخترق.. راوغ.. مر.. راوغ.. انطلقت الصافرات والهتافات باسم الكابتن.. باسمه وحده.. الجماهير تصفق بحرارة..

(ها أنا أيها الوغد أنا الكابتن ولا غيري.. أنا النجم)

استمر في الاختراق والكرة كأنها ملصقة بقدمه طوع أمره.. اقترب من المرمى.. الزاوية مفتوحة أمامه.. الشباك تفتح ذراعيها.. لحظة..

من خلفه دفاع الخصم لو انتظر جزءًا من الثانية سيخطفها أو يعرقله أو يعيقه بالقوة.. ولو ركلها الآن فاحتمالية التسجيل كاحتمالية الخطأ وقد ينجح الحارس في التصدي لها.. لكن لو

مررها إلى اللاعب الذي ينتظره هناك.. ستكون هدفًا بالتأكيد.. لكن كيف يسلمها بنفسه للمغرور الصاعد.. سمع الجماهير تحثه على التصويب..

(إنهم يريدونني أنا.. هدفي له مذاق خاص)

لفته الشاب الصاعد يصرخ:

- سدد يا كابتن.. صوب يا نجمنا الأوحد.. مزق شباكهم..

أفاق الكابتن وابتسم معتذرًا بنفسه لنفسه عن أفكاره..

(أنت تستحقها أيها الفتى الطموح.. تستحق أن تنال تاريخًا مثل تاريخي)

ثم مررها الكابتن سهلة إلى الشاب الصاعد.. الذي فوجئ بالتمريرة وفوجئت معه الجماهير.. انتبه الصاعد واستلمها برشاقة وصوبها في المرمى فخرقت شباكه.. قفز الشاب يحتضن الكابتن الدامع.. وتقافزت الجماهير في الهواء يهتفون باسم خليفة الكابتن..

❖ ❖ ❖

حضن القطار

أدار أبوها قطارها الصغير أمامها، فجرى على صينيتها مسرعًا.. جلست القرفصاء بجوار القطار، متوجسة مندهشة مستكشفة.. أصدر القطار صوتًا موسيقيًّا مريحًا بعجلاته الصغيرات الناعمات.. أنِست به قليلًا فاقتربت منه بحذر، ثم تشجعت ومدت يدها تعبث بمقدمته، فأطلق القطار صافرة مفاجئة، فسحبت يدها خائفة.. ضحك أبوها واحتضنها من ظهرها:

- لا تخافي فالقطار يلقي عليك تحيته..

اقتربت منه ثانية وضغطت على مقدمته ثانية؛ فأطلق صافرته؛ فتراجعت قليلًا ثم ابتسمت ثم اقتربت فضغطت ثالثة فأطلق صافرته فضحكت..

سألت أباها:

- هل قطارك مثل هذا يا أبي؟
- كلا.. قطاري أكبر بكثير..

قالت وهي تضع سبابتها على شفاها:

- إمممم! مثل حجرة أمي؟
- كلا.. أكبر بكثير..

قالت وهي تمعن التفكير:

- إمممم! مثل حضانتي؟

- كلا.. أكبر بكثير..

قالت وهي تشير بكلتا يديها:

- إذن مثل مدرسة مصطفى؟!

قال وهو يفكر على طريقتها:

- إمممم! تقريبًا..

- وهل تقوده وحدك؟

- نعم.

- وهل تركبه وحدك؟

- كلا.. يركب معي أناس كثيرون..

قالت تستدرجه:

- وهل يركب معك أطفال؟

- نعم..

فصاحت وكأنها وكيل نيابة أوقع المتهم في الفخ:

- إذن لم لا تأخذني معك لأركب كما يركب الأطفال،،،،؟!

ضحك واحتضنها وقبلها:

- سآخذك عندما تكبرين..

فلوحت غاضبة ونزعت نفسها من حضنه، ودفعت القطار عن قضبانه بعصبية، وقفزت وسط الصينية محتجة متباكية، وهي تردد:

- كل شيء (عندما تكبري.. حتى تكبري)..

فاقترب منها وضمها هامسًا:

- ما رأيك لو تذهبين غدًا لتركبي مع مصطفى (باص) الرحلة فهو يشبه القطار؟.

سكتت تفكر في الاقتراح.. لكن مصطفى الجالس يذاكر بجوارهما تململ رافضًا الفكرة:

- كلا لن آخذها.. ستفسد عليّ اليوم..

أثارها اعتراض مصطفى ،وحفزها لقبول اقتراح أبيها فقالت وقد قررت متحدية:

- إذن سأركب (الباص)..

ضحك أبوها واحتضنها.

❖ ❖ ❖

في الصباح عند باب سيارة الرحلة.. اكتشفت أنها لا تشبه القطار.. فرفضت ركوبها.. حايلها مصطفى، لكنها أبت فهي تريد القطار.. نفد صبر مصطفى وكاد يضربها، انتبه لهما السائق فاقترب منها في حنان:

- حبيبتي هذا أيضًا قطار ولكنه صغير..

عقدت يديها على صدرها وهزت عنقها:

- كلا قطاري الصغير في البيت..

- إذن هذا قطار كبير..

- كلا.. القطار الكبير يركبه أبي.. فهو أكبر من مدرسة مصطفى..

فكر السائق قليلًا ثم أخذها تحت ذراعه يخفيها سرًّا:

- سأخبرك بشيء خطير.. لكن لا تخبري مصطفى..

فتابعته باهتمام، فقال:

- إننا سنمر بجوار القطار وسنحيي أباك..

نظرت له تستيقن.. فقال:

- صدقيني!

❖ ❖ ❖

ركبت السيارة على أمل رؤية قطار أبيها.. لكن ضايقها الزحام.. وزادها غيظًا أن مصطفى أخذها ووضعها على فخذه كي يتسع الكرسيان لأربعة أطفال.. صرخت رافضة وطلبت منه إن كان ولابد فليجلس هو على رجلها، فضحك السائق وضحك الأطفال.. فجذبها مصطفى بقوة إلى حجره، وأجبرها على الجلوس فبكت وأخذت تضربه بقبضتيها الصغيرتين تريد التخلص منه.. التفت إليها السائق يهدئها:

- انظري..

لم تلتفت وظلت تضرب مصطفى وتبكي.. فأردف السائق:

- إنه القطار.. قطار أبيك..

توقفت عن البكاء والتفتت عبر النافذة بلهفة.. رأت القطار

يسير بعيدًا بمحاذاة السيارة.. قال السائق:

- هيا حيي أباك والقطار..

كفكفت دموعها ومدت يدها من النافذة، تلوح للقطار سعيدة وتصيح:

- أبي.. أنا هنا.. أركب قطارًا مثلك..

فجأة أطلق القطار صافرته المزعجة فتراجعت مأخوذة داخل النافذة، فضحك الأطفال وضحك مصطفى.. فطمأنها السائق:

- لا تخافي.. إن القطار يحييك كما تحيينه..

فتذكرت قطارها الصغير الذي يحييها أيضًا بصافرة.. فأعادت التحية، فأعاد القطار الصافرة، كأنه يداعبها، فانسجمت معه ضاحكة وضحك سائر الأطفال.. فجأة تعطلت سيارة الرحلة فتأخرت عن القطار.. جزعت وصاحت:

- لقد ذهب أبي والقطار..

بعد دقائق تم إصلاح العطل، وانطلق السائق وهو يقول لها:

- لا تقلقي سنلحق بهما.. بل سنمر من أمامهما..

بعد مسافة قرر السائق أن يعبر إلى الناحية الأخرى من قضيب القطار ليستكمل طريقه، بطّأ سرعته يستكشف حال المزلقان، إنه آمن ومفتوح.. لا سلسلة.. لا حواجز.. لا خفير، تحرك السائق ناحية القضبان.. ثم التفت إليها وهو يشير أمامه إلى القضبان:

- هذا هو طريق القطار..

أخرجت رأسها من النافذة كي ترى القضبان ولعلها ترى أباها أو القطار.. مرت مقدمة السيارة على القضيب الأول.. فجأة ظهر القطار على بعد أقل من ألف متر.. صعق السائق وتردد بين استكمال المرور والعودة للوراء.. تصلّبت الإطارات.. القطار أطلق صافرته التفت الأطفال مذعورين.. ترك السائق المقود واضعًا رأسه بين ذراعيه يتلو الشهادتين.. اندهشت لرد فعلهم والتفتت هادئة ناحية القطار.. ضجت السيارة بصريخ الأطفال.. لكنها أشارت بيدها إليهم تطمئنهم:

- لا تخافوا يا أطفال إن قطار أبي يحييكم..

ثم مدت يدها من النافذة تحيي أباها وتحيي القطار.

❖ ❖ ❖

فاترينا

وقف مترددًا أمام المحل يبلع لعابه أو ما بقي منه بعد جفافه، يلقي نظرة على الأرقام الملصقة على المعروضات لعله يتراجع أو يأخذ الاحتياطات اللازمة إذا أراد أن يتهرب من طفليه.. ثم تراخت يده مع إلحاح الطفلين اللذين جذباه إلى الداخل:

- (يالا يا بابا)

دخل الأستاذ سلامة يردد (قل أعوذ برب الفلق) وبعض الأذكار، أقبل عليه الشاب عامل المحل متهللًا وسلامة يقول في نفسه:

كلكم تبتسمون كي تسطوا على ما في جيوبنا..

صافحه الشاب بحرارة:

- أهلًا أستاذ سلامة.. أنا أحمد تلميذك وهذا محلي..

زاد ارتباك سلامة ورسم ابتسامة يرد بها على لطف الشاب وهو يدور بعينه نصف دائرة في المكان:

- ما شاء الله.. تبارك الله.. أهلًا أهلًا..
- أمر حضرتك عندنا كل المقاسات

سقطت نظرة من الشاب على حذاء سلامة المهترئ:

- مقاس حضرتك؟

أتبع سلامة نظرة الشاب بنظرة خجلة على حذائه:

- كلا.. تفيدة حبيبتي لن أبدلها الآن

هربت عيناه على الأحذية المحيطة به في المكان:

- أريدها للأولاد.. لكن..

التقط الشاب حال سلامة فقال في لطف:

أفهم أفهم.. عندنا كل الأسعار.. كما تشاء..

ربنا يسترك..

أراد الطفلان أن يتحررا من قبضة أبيهما لينتشرا في المكان، لكن سلامة أصر ألا يفلتا حتى لا يزيدا مهمته صعوبة باختيارهما المباشر الذي قد يوقعه في فخٍّ لا تحتمله حافظة نقوده.

أشار الطفل من مكانه إلى حذاء براق في أحد الأركان، فلما لم ينتبه سلامة متعمدًا، حاول الطفل سحبه إلى هناك وهو يصيح:

الطفل: (عايز دا يا بابا)

ألقى سلامة بسهمه عند موقع الإشارة فلمح ورقة السعر (٩٨).. فقلب ملامح وجهه ودفن البسمة وأهال على حنانه التراب، وقال بجدية أب يخشى على ابنه عبور السكة الحديدية:

- دائمًا متسرع أيها الشقي.. إنها رديئة..

- (بس أنا عايزها.. أنا حر بقى)

تدخل الشاب كأنه يورط سلامة:

- تحت أمرك يا أفندم لا تقلق من جهة السعر سنريحك

كسب الطفل نقطة وخسر الأب كل النقاط، فتنهد سلامة

(مسلمًا أمره لله):

- أراحك الله وأراحني وأراحنا الله جميعًا.

ثم التفت لطفلته الهادئة، التي ضغطت على إصبعه كي ينتبه لها، فانحنى إليها بحنان فقالت بحنان أشد:

- اختر لي أنت يا بابا..

أمسك دمعته القريبة بطبيعة الحال، فقبل رأسها هو يهمس لها:

- سأشتري لك أفضل حذاء في مصر كلها..

دار برأسه سريعًا، يا فرج الله! خطف نظره الحذاء إنه رائع ورخيص.. إنها بركات «نور» الحنونة.. تحرك سلامة نحو الحذاء ليتأكد فوجده مكتوبًا عليه (٣٢) فأشار إلى «نور» سعيدًا، فقفزت نحوه مستبشرة:

- ما رأي نور؟

- جميل يا بابا..

تدخل الشاب محرجًا ليزيل سوء الفهم الذي وقع أو على وشك أن يقع:

- تحت أمرك يا أفندم.. لكن هذا الرقم رقم الحذاء وليس..

بلع سلامة لعابه محرجًا، فقد صارت الورطة ورطتين ولن يستطيع التراجع عن أي من الحذاءين، فقال متلعثمًا:

- نعم نعم أفهم.. بكم؟

سحب الشاب الآلة الكاتبة من على مكتبه وضرب سريعًا الأرقام.. ثم أخطأ فأعاد.. أخرج سلامة منديلًا ومسح عرقه أو ما توهمه من عرق.. التفت له الشاب وقرب إليه شاشة الحاسبة.. فدقق سلامة النظر متوجسًا.. امتص صدمة لم يستطع إخفاءها فقطب جبينه لحظات.. ثم بسطه وابتسم ابتسامة مضطر.. ثم انتحى جانبًا، فأخرج كل النقود التي في جيب بنطاله فبرز جوف البنطال دون أن يدري.. وضع النقود على أحد الألواح الزجاجية سقط منها جنيهات فضية فأسرع خلفها ولملمها متوترًا متباسمًا وأسرعت نور تساعده.. تابعه الشاب وقد انتابه هو الآخر الحرج.. أفرغ سلامة جيبه الخلفي فلم يجد شيئًا فشرد قليلًا، ثم أشار إلى الشاب فاقترب.. فقال سلامة بصوت خفيض:

- لا أجيد الفصال.. لكن ليس في جيبي إلا هذا فدون حرج.. هل يكفي؟

سكت الشاب لحظات محرجًا ثم ابتسم:

- يكفي..

تنفس سلامة الصعداء:

- ربنا يسترك..

اقتربت نور من أبيها تهمس له وتذكره:

- (طب وأنت يا بابا)

- غدًا.. غدًا إن شاء الله

ثم تدخل الطفل:

- (طب والشنط يا بابا)

- غدًا.. غدًا إن شاء الله..

اختبر الطفلان الأحذية واستعدوا للخروج، صافح سلامة الشاب صاحب الجميل بود شديد.. وخرج..

جلس الشاب بتابعهم مبتسمًا شبه راض، ثم أخرج من جيبه نقودًا وضمها إلى نقود سلامة كي يكمل السعر حتى يسجله في الدفتر، ثم دندن وهو يسجل الرقم:

بضاعة أتلفها الحرج..

❖ ❖ ❖

خرج سلامة من المحل شبك يديه في يدي الطفلين.. هما سعيدان يطوحان بعلبتي الأحذية في الهواء، وهو أسعد منهما بسعادتهما، فقط تنتابه غصة خفيفة عندما تزوغ عينه إلى الأحذية المعروضة في زجاج الفاترينات أو إلى أحذية المارين، لكنه يستعيذ بالله ويغض بصره سريعًا.. قال الطفل:

- (إحنا مش هنركب يا بابا؟)

- باق خطوتان ونصل..

يمر بجواره تاكس، تباطأ ليلفت انتباه سلامة، فلم يلتفت له سلامة كأنه لا يراه حتى لا يحرجه أمام الأطفال، فهو يعرف

أساليب سائقي التاكس جيدًا.. لكن السائق نادى عليه ساخرًا:

- يا سلامة ارحم العيال وارحم تفيدة..

التفت سلامة وقد عرف صوته إنه جاره:

- توكل على الله يا سيد.. لا تفتح أعين الأولاد على التاكسيات..

قال سيد ضاحكًا:

- يا أخي اركب.. التاكس صار ملكي..

- زادك الله يا سيدي..

توقف الطفل ليجبر سلامة على النزول على رغبة السائق، وتوقف سيد وفتح باب التاكس من الداخل فركب سلامة..

❖ ❖ ❖

في الصباح خرج سلامة متعجلًا ككل يوم، فقد أوشك أن يفوته موعد الأتوبيس ككل يوم.. ألقى حقيبته بجوار الباب وتفرغ لارتداء الحذاء المهترئ العنيد، وهو يقول هامسًا:

سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين..

أطلت نور من الباب تودع أباها وتذكره:

- (ما تنساش تشتري لك شوذ بقى يا بابا)

- حاضر..

ثم أطل أخوها من تحت ذراعها:

(ما تنساش الشنط يا بابا)

حاضر..

قبلهما ثم انطلق قافزًا الدرج ثم انتبه إلى مركبه التي لن تتحمل، فهدأ من سرعته معتذرًا لها..

❖ ❖ ❖

سار وسط الشارع يجر حذاءه الذي يشعر أنه أثقل من الحقيقة، متفاديًا برك الماء والأحجار والمطبات المفاجئة، يتلفت حوله ناحية الفاترينات المبهرة، وكلما رأى حذاء تخيل ارتداءه..

وصل محطة الأتوبيس.. سلم على معارفه من المدرسين والموظفين أقران نفس التوقيت الصباحي، وأقران نفس الموقف الاجتماعي، و إن تميزوا عنه قليلًا في الموقف (الحذائي).. حاول بقدر الإمكان أن يقف متأخرًا عنهم حتى لا ينتبه أحد للحال الذي وصل إليه حذاؤه.

تأخر الأتوبيس، والشمس قد حميت، رفع سلامة حقيبته التي تشبه حذاءه ليتفادى بها الحرارة، لفت نظره فاترينا لأحذية فخمة على أول الشارع، ولافتة مكتوب عليها تخفيض ٥٠ بالمائة.. فكر قليلًا، ثم قفز نحو المحل سريعًا، أعجبه حذاء معروض، حسبها سريعًا لو سعره ١٥٠ فهو بعد التخفيض سيكون ٧٥.. جيد لا بأس، لمح بداخل المحل فتاة، ولج على بركة الله وهو يقول هامسًا:

- يا رب تكون تلميذتي..

استقبلته الفتاة بقليل من الاعتناء ربما حفزها على ذلك مظهره،

أشار سلامة في حياء إلى الحذاء الذي أعجبه وهو يقول مترددًا:

- لا مؤاخذة.. هذا الحذاء.. نعم هناك..

أجابته الفتاة مباشرة كأنها تتعمد صدمته:

- ٣٠٠ جنيه يا أفندم.. دون فصال..

- أين التخفيض إذن؟

- ليس لدينا تخفيض..

بلع لعابه واستدار منصرفًا دون نقاش..

- شكرًا..

ثم التفت لها من عند الباب:

- في أي المدارس درستِ؟

الفتاة: ماذا؟

لم يهتم سلامة بالإجابة وألقى ابتسامة مهذبة وهو يستدير:

- لا.. لا شيء..

خرج سلامة مغتاظًا مهمهمًا:

أيها الأفاقون، كيف تعلنون عن تخفيض.. ثم..

اكتشف سلامة أن لافتة التخفيض على المحل المجاور، فعادت إليه ابتسامته وانشرح صدره وتجدد أمله، ثم انفرج ثغره أكثر عندما رأى حقائب المدارس بجوار الأحذية، فبدا له أنه سيشتري الحذاء والحقائب في صفقة واحدة.

- يا مسهل يا رب..

وقف على عتبة المحل لحظة يتمتم:

- بسم الله ولجنا.. يا رب ما تحرجنا

انتصب الشاب العامل في المحل مبتسمًا فتلقاه سلامة متفائلًا بالابتسامة:

- السلام عليكم..
- وعليكم السلام.. تفضل يا أستاذ..
- أريد حذاءً على مقاسي.. لكن السعر مريح.. مريح جدًّا..

الشاب يهز رأسه وسلامة يؤكد:

- جدًّا جدًّا جدًّا.. أتفهمني؟

الشاب يكتم ضحكته:

- عيوننا لك يا أفندم..
- سلمت عيونك.. أنا أشعر أنني درّست لك..

الشاب يشير بيده وهو يكتم حرجه بإشارة أنه (ميح)..

- أنا لم أتعلم..
- نهائيًّا؟
- نهائيًّا..

قال سلامة مازحًا:

- تشعر براحة إذن..

- الحمد الله..

تحرك الشاب ناحية حذاء زهيد السعر:

- ما رأيك؟
- رائع.. بكم؟
- لن نختلف.. لا تقلق

يقول سلامة (باسمًا):

- تعجبني هذه الجملة.. تريحني كثيرًا..

أخرج الشاب الحذاء من العلبة وأخذ اللبيسة:

- تفضل.. قس..

جلس سلامة على الكرسي وخلع الفردة اليمنى من «تفيدة» وهو ينظر إليها مودعًا:

- مع السلامة يا غالية

ثم ارتدى الفردة اليمنى الجديدة منتشيًا.. ثم نظر إليها وإلى اليسرى المهترئة مقارنًا باندهاشة.. ابتسم الشاب سعيدًا بحال الرجل، ثم رفع سلامة عنقه يسأل الشاب بالنظر خشية أن تفسد فرحته، فقال الشاب يطمئنه:

٦٠ جنيهًا فقط..

انشرح سلامة:

والله معقولة.. هات الثانية..

لكن قبل أن يرتدي الأخرى انتبه إلى الحقائب المدرسية الصغيرة معلقة بجوار الأحذية.. حدق فيها.. بلع لعابه وقد تذكر طفليه.. فسأل الشاب:

- بكم هذه الحقائب؟

وقبل أن يجيبه الشاب لمح سلامة الأتوبيس يظهر من بعيد..

❖ ❖ ❖

خرج سلامة مسرعًا من المحل معلقًا حقيبته على كتفه، وفي حضنه حقيبتان صغيرتان، وإحدى فردتي «تفيدة» تحت إبطه، والأخرى لا تزال في قدمه اليسرى.. والشاب يقف على باب المحل مودعًا دهشًا.. فجأة انخلعت الفردة التي في قدمه.. فتوقف لحظات مترددًا بين العودة إليها والإسراع خلف الأتوبيس..

ثم أخذ قراره.. وألقى بالفردة الأخرى لتؤنسها مشيرًا إلى الشاب كي يحتفظ بهما.. ثم جرى حافيًا خلف الأتوبس..

❖ ❖ ❖

أنا الملك

أضيء المسرح من جميع الجهات.. رُفع الستار.. ظهر قفص الأسود على زاوية من خشبة المسرح.. أسدان صغيران يتوسطهما الأسد «مُندي»..

صفق الجمهور بحرارة عندما رأوا مندي.. تحرك المساعد العجوز بشكل استعراضي وفتح القفص للأسود الثلاثة كي يخرجوا إلى الميدان.. خرج الأسدان الصغيران بنشاط ينتظران أوامر المدرب.. فعاود الجمهور التصفيق..

تأخر الأسد «مندي» قليلًا ثم خرج متباطئًا متبخترًا ؛كأنه يريد تحية خاصة من الجمهور يتمايز بها عن الصغيرين، وبالفعل نالها.. طال تصفيق الجمهور مرحبًا بـ«مندي».. ظهر المدرب من يسار المسرح وقد بدا منفعلًا فلم ينتبه إليه الجمهور المعلق نظره بمندي، فضرب المدرب بسوطه على خشبة المسرح ؛ليعلن عن وجوده فهو هنا الملك الزعيم، فانتبه له الجمهور وانتصب بعضهم وقوفًا يطلقون الصافرات والتحيات..

بدا للمساعد العجوز أن الجمهور منقسم بين «مندي» والمدرب، أمر مثير سيجعل الليلة أكثر إبهاجًا.. انهمك العجوز في عمله كي يبدأ الحفل سريعًا.. ضبط وضع الإطار الأسطواني المعلق وسط المسرح أمام الأسود، ثم أشعل في سطحه الخارجي نارًا..

أشار المدرب بسوطه الأسود الملفوف إلى الأسود الثلاثة ؛كي

تجثوا على ركبها ليمروا ببطء من خلال الإطار.. تلقى الأسدان الصغيران الأمر بسهولة وأحنيا ظهريهما قليلًا ومرا شبه زاحفين من خلال الإطار..

اشتعل المسرح تصفيقًا للمدرب المرهوب الموهوب، فانحنى مزهوًّا يرد التحية بتحية من سوطه.. أطلق الجمهور الصافرات..

لكن فجأة انقطع التصفيق والصفير.. فقد انتبه الجمهور أن «مندي» تسمر مكانه وكأنه قد أعلن العصيان.

تراجع «مندي» إلى الخلف خطوة ثم أطلق زأرة.. ساد الصمت المكان.. ثم انتفض بعض الجمهور يؤدون التحية لمندي بالتصفيق والصفير وكأنهم يؤيدونه في موقفه تجاه المدرب الذي بدا للبعض مغرورًا..

زم المدرب شفتيه وضغط على فكه غيظًا ولم يستطع أن يخفي توتره البادي على خلجات وجهه، وتراقصت حبات عرقه تحت سهام الأضواء.. بلع المساعد العجوز لعابه توجسًا من تطور الموقف.. تحرك المدرب على المسرح بثبات؛ليؤكد أنه أمر عارض وبضربة سوط سيزول، فالأسد المسكين له ذاكرة تخونه دائمًا فيظن نفسه أنه لا يزال ملكًا في غابته ويتخيل أن اللبؤة تضبط له التاج على رأسه في لحظة تتويج أمام عرينه..

ضرب المدرب بالسوط على خشبة المسرح كي يرهب «مندي» وأيضًا يرهب أنصاره من الجمهور، فشق السوط الهواء

كغصن شجرة ينكسر.. لكن «مندي» أصر على موقفه ورفض التنفيذ وواجه الضربة بزأرة ثانية رجت المكان.. زاد توتر المدرب فانفعل وضرب ضربة ثانية بجوار «مندي» فأشاح بيده في الهواء وزمجر والتفت نحو المدرب غاضبًا كأنه يحذره.

توجس الجمهور يبدو أن الأمر ليس مجرد عصيان وخلاف سيزول.. أراد المدرب أن يكرر الضربة فاستوقفه مساعده العجوز، يهمس في توسل:

- كابتن.. «مندي» لا يعامل بهذه الطريقة..

نزع المدرب يده وقال منفعلًا:

- الأسد لا بد أن يراك أسدًا..

- لكن الجمهور رقاه إلى درجة إنسان..

المدرب يضيق بالعجوز فأشاح بوجهه عنه رافضًا توجيهه، والتفت إلى الأسد ثالثة وضرب على خشبة المسرح وهو يصيح في «مندي»:

- ازحف..

كثير من الجمهور وقف منتصبًا ليتابع المشهد عن كثب.. الأسد لا يزال جامدًا صامدًا.. زاد انفعال المدرب، فهاجم «مندي» وضرب أرض المسرح بالسوط فطال طرف السوط فخذ الأسد فانتفض الأسد وانتفض العجوز، والمدرب يصيح:

- اركع..

شهق الجمهور.. توقع الجميع أن يرد مندي، فقد بات من الواضح أنه يضمر شرًّا للمدرب.. لحظات صمت.. العجوز يهمس داعيًا أن يمر الأمر بسلام.. فجأة وعلى غير ما توقع نصف الجمهور.. جثا الأسد متباطئًا متخذًا الوضع المناسب، فقد آثر السلامة ومر من خلال الإطار..

انتفض جمهور المدرب مصفقين وأطلقت بعض النساء الزغاريد.. في حين جاءت تحية جمهور مندي ضعيفة متقطعة تعبر عن الخذلان، فبعضهم لم يعجبه تنازل الأسد أمام هذا المغرور..

ضحك المدرب وأشار بالسوط منتشيًا.. بالانتصار..

جاءت اللقطة المثيرة في العرض المثير، فتح المدرب فك أحد الأسدين الصغيرين وأقحم عنقه فيه وأشار بيده بعلامة النصر.. فصفق جمهوره منتشيًا.. ثم أخرج المدرب رأسه وانحنى ليرد تحية المشجعين..

انفجر جانب آخر من المسرح وهم جمهور مندي.. فصاحوا كأنهم يوقعون بالمدرب:

- مون.. دي.. مون.. دي..

ابتسم المدرب في ثقة واتجه ناحية مندي مطمئنًّا إلى مهارته مزوّدًا بتصفيق حار من جمهوره.. اقترب منه بهدوء، فتراجع «مندي».. فتقدم المدرب بشكل أسرع وأمسك برأس مندي ومسح عليها كأنه يصالحه ويصفي الأجواء.. ظن جمهور مندي

أن الفرصة قد واتته وسيقتص لكرامته ويغرز فيه مخالبه ويطعنه بنابه، لكنه خذلهم للمرة الثانية، فأعلن السلام التام والذل الزؤام وحك رأسه في صدر المدرب قابلًا الاعتذار، بل بدا كأنه هو الذي يقدم الاعتذار.

صفق جمهور المدرب وتمتم جمهور مندي مستائين يائسين:

- صحيح.. حيوان!

فتح الأسد فكيه طواعية فصفق الجمهور بإعجاب وضجت القاعة بالتهليل والصفير، أدخل المدرب عنقه بهدوء كأنه ظبية سعيدة بقنصها.. أشار المدرب بانتشاء بعلامة الانتصار، فضجت القاعة بالتهليل والصفير.. فأغلق مندي فكيه على عنق المدرب بإحكام فذبحه، ثم هز ذيله في انتشاء بعلامة الانتصار.. فضج جمهور «مندي» بالتهليل والصفير..

❖ ❖ ❖

نوبة عشق

الحفل صاخب والحضور كثير.. وألوان فساتين النساء نسجت قوس قزح حول عنقي.. أكره الزحام وأوشك أن أكره النساء.. استرخيت على كرسيّ «الأنتيكة» وزغت في مجلتي القديمة أتصفحها وأهرب من تيار الكهرباء الذي يحاصرني من الاتجاهات الست.. أخذتني إغفاءة أو شبه إغماءة..

فجأة مرت بجواري.. لمس ذيل ثوبها بنطالي.. إنها محاولة أنثوية ساذجة للفت الانتباه.. عطرها تهادى خلفها فاخترق مسام جلدي ونفض التراب عن قلبي المعطل منذ سنوات.. فتحت عينَّي وانتبهت في عجلة أتتبع مجرى النهر لأرى منبعه.. يا الله! رأيت غصنًا ضاق ذرعًا بالبستان فتدلى من شجرته وسار بيننا على قدمين.. قوام شامي وخطوة حجازية.. بلعت لعابي بصعوبة.. خلعت نظارتي أخرجت منديلي نظفت زجاجها.. ارتديتها ضبطت زواياها على أنفي.. إنها حقيقة.. إنها من لحم ودم.. دققت النظر وصوبته.. استعذت بالله من شيطان النظرة الثانية، لكني رغم المجاهدة لم أتمكن من الفكاك من أغلال جيدها الفارع..

فجأة وكأن سهم عيني نبهها إلى ذاك المتطفل خلفها.. التفتت كأنها تلبي نداء أو كأنها صياد يتأكد من حصاد الشباك.. رأيت وجهها، كلا رأيت ضياء، تخشبت مكاني.. أصابتني رعدة كأن سحابة مثقلة تائهة توقفت في السماء ثم انسكبت فوق رأسي بكل

حمولتها.. أما جبهتها فموصولة بالشمس مباشرة.. انتصبت مشدوهًا ابتسمت لي.. نعم ابتسمت لي.. إني على وشك إغماءة.. أغمضت عيني أخفف الحمل عن قلبي الضعيف.. هززت رأسي أتأكد أنني في وعيي.. فتحت عينيَّ ببطء.. اختفت لم أجدها فقد زاغت وسط الحضور.. أو ربما.. كلا كلا.. طردت الفكرة عن خاطري إنها حقيقة إنها واقع.. ألقيت بجسدي المنهك كأنه خارج من حلبة مصارعة للتو على كرسي.. حاولت أن ألملم صورتها التي تناثرت حولي.. أغمضت عيني وضغطت بجفوني حتى أحبسها في صندوق خيالي.. بعد قليل انضبطت أنفاسي في مسارها الطبيعي..

قمت تحركت في المكان للبحث عنها.. فتشت في زحام النساء حولي.. أتلقى ابتسامة من خليعة تظن أنني معجب.. وأتلقى تقطيبة من متسترة تظن الظن نفسه..

إنها ضاعت.. خلعت النظارة وفركت عيني لعلي كنت أحلم.. فجأة اصطدمت بطفل وسيم يرتدي نظارة مثل نظارتي وأنفه معكوف مثل أنفي.. جذبني من بنطالي يسألني بدون تكلف كأنه يعرفني:

- أين أمي؟

سكتُّ برهة أتفرس ملامحه الجميلة - عدا أنفه بالطبع:

- من أمك أيها الوسيم؟

نظر الطفل إليّ مستنكرًا سؤالي، ثم قلب حاجبيه مندهشًا ثم

انصرف يبحث عن أمه.. تابعته بنظري حتى اختفى.. استدرت.. وفجأة على طريقة أفلام الأربعينيات اصطدمت بها.. إنها هي ليس بيني وبينها حاجز سوى نظارتي.. خلعتها مسحتها وألقيتها على أنفي.. رحماك ربي!

اعتذرت لي واعتذرت لها.. احمرّ وجهي.. لكن وجهها لم يكن فيه متسع لاحمرار إضافي.. انتفض قلبي يريد أن يقفز من قفصه الصدري.. أرادت أن تمر.. فقطعت عليها الطريق بشكل لا إرادي أتفرس وجهها الباسم.. لم أكن بهذه الجرأة من قبل ماذا حدث لي؟! اندهشت لجرأتي.. نطقت بدلال:

- ماذا جرى لك يا حسن؟ أفسح الطريق..

يا ألله! إنها تعرف اسمي.. تخدرت ومال جسدي فكدت أسقط، فأفسحت لها المجال رغمًا عني.. فانصرفت وسحبت بزمام قلبي خلفها، ثم استدارت وقد تذكرت شيئًا:

- أنت كاتبي المفضل.

أغثني يا غواث.. وأيضًا تقرأ لي.. رأيت الطفل الوسيم قد قفز بيننا.. يوزع نظراته الدهشة بيننا.. أخذتْ الطفل من يده وتاهت في الموج النسوي.. مسحت عرقي بكم قميصي وأنا أتبعها بنظري الذي جرّته خلفها جرًّا.. جلست ألتقط أنفاسي القصيرة المبعثرة.. ثم انتفضت ضاربًا على جبهتي كيف أتركها تضيع ثانية، مددت عنقي أبحث عنها بين الطويلات.. اختفت.. ربما هناك.. كلا

اختفت.. يا لحماقتي!

انتهى الحفل تقريبًا.. وقفت أرقب المنصرفات.. الضيوف يودعونني ويباركون عيد الميلاد.. لا أدري ميلاد من؟

فرغ المكان إلا قليلًا وفي الغالب هم أقاربي الحسرة تكاد تقتلني أتطلع هنا وهناك لعلها تظهر من خلف الجدار أو الستار، ستظهر بالتأكيد إنها أطول الموجودات، لكن لم تظهر.. ثانية ثانيتان.. وكعادة أفلام التسعينيات رأيتها خارجة من المطبخ متجهة نحوي..

غير معقول! إذن كانت تنتظرني حتى نهاية الحفل حتى تنفرد بي.. اندفعت نحوها بلهفة.. توقفت أستضيء بوجهها القمري انحبس لساني للمرة الثانية وتعطلت عيناي على ثغرها الساحر.. وددت أن أمد يدي ألمس وجهها المرمري، نظرت حولي هل يرقبنا أحد؟.. كلا لم يعد أحد في البيت.. لا يتابعنا سوى ذلك الطفل المكير.. خرج من حلقي شبه صوت بشبه جملة:

- تتزوجينني؟

نظرت إليّ باندهاش.. خفق قلبي خشيت أن تصفعني على وجهي أو عساها تكون زوجة، بل لعلها تكون أمًّا لهذا الصغير الوسيم.. إني تعجلت كعادتي يا لغبائي!

ياللهول! مدت يدها الناعمة.. وضعتها على وجهي ثم مررتها على شعري.. إني أشتعل إني أتبخر إني أغرق أغرق أغرق.. بلعت

لعابي، بل لم أعد أجد لعابًا في حلقي.. لفت أصابعها حول عنقي.. أغمضت عيني مستسلمًا يا أللهِ! أنا على أعتاب الجنة..

لكن فجأة على طريقة الكوميديا السوداء شعرت أن يدها اخشوشنت وأن شيئًا انحشر في حلقها وخنق صوتها، فتحت عيني وجدت نفسي على كرسيّ الأنتيكة وبين يدي المجلة القديمة وأمامي زوجتي وولدي صاحب النظارة:

- استيقظ يا حسن.. الضيوف انصرفوا..

❖ ❖ ❖

واحد طنطا

دخل الشاب، الذي لم يرتق عتبة الخامسة والعشرين بعد، إلى موقف السيارات يجر قدميه في بؤس شديد كأسير حرب تركه آسره زهدًا في حاله.. يجر خلفه حقيبته القماشية التي تشبهه كثيرًا متجهًا إلى لافتة مكتوب عليها (طنطا).. وقف أمامها مهمومًا متخشبًا كأنه عابد كافر يؤدي نسكًا في غير اقتناع.. ألقى بنفسه وبحقيبته تحت مظلة الانتظار منهكًا مكتئبًا.. عاود النظر إلى اللافتة.. ثم رجّ رأسه في الاتجاهات الأربع يريد أن ينفض ذكرى تلح عليه وتراوده، لكن الذكرى تأبى إلا أن تتمثل أمامه.. فاتكأ إلى حقيبته القماشية المتسخة، واستسلم لذاكرته لتأتي بما عندها..

❖ ❖ ❖

إنه يجلس مع تربه سلامة على شاطئ الترعة بين الماء والخضرة، يلقي الحصى وسط الماء الصافي فيصنع دائرة صغيرة لا تلبث أن تلد دوائر كثيرة كبيرة.. يتحدث بتفاؤل وحماس مستصحبًا ابتسامة بعرض الترعة:

- القاهرة أم العواصم يا واد سلامة.. بالك أنت.. ما حدش بيروح هناك ويخيب.. هناك النجوم والأدبا والمشايخ والمغنى والأوبرا..

ابتسم سلامة معجبًا بتصويرات صاحبه فكأنه يرى القاهرة أمامه شاخصة جالسة القرفصاء، فاستلقى على ظهره مشبكًا يديه

أسفل قفاه ومعلقًا ساقه على بروز ركبته ومرسلًا نظره إلى السماء، طامعًا في المزيد من حسن:

- شوقتني يا واد يا حسن بك.. وإيه كمان؟

استلقى حسن بجوار صاحبه على نفس طريقته وقد أعجبته حالة سلامة الذي بدأ متأثرًا بأوصافه أكثر منه:

- هوجة وأنس وأضواء وتزاويق..

ثم هامسًا في حياء:

- ونسوان يبلّوا الريق..

ضحك سلامة خجلًا وطوح برأسه ليتأكد أن أحدًا لا يتنصت عليهما.. واستطرد حسن بنبرة خبير:

- أما المواصلات بقى.. فإشي عربيات على كارتيتات على تاكسيات وترومواي بيقولك هاي.. حاجة كده تجنن يا سلامة!

- شكلي هاجي وراك في أول أجازة يا حسن..

- تنورنا يا صاحبي.. ألفك القاهرة شارع شارع.. وحارة حارة..

ثم اعتدل سلامة يسأله:

- بس أبوك موافق؟

- أبو يا هو اللي شجعني.. أبو يا متنور يا واد.. ودارنا كلها عارفة إني هنجح هناك.. وواثقين إني هرجعلهم حاجة كبيرة.. كبيرة خالص..

سلامة ساخرًا ضاحكًا:

- كبيرة خالص.. قدّيه يعني! قد الجاموسة مثلًا..

يغتاظ حسن فيلقيه في وجهه بالحصى الذي في يده، فيتفاداها سلامة بساعده وينهض هاربًا ضاحكًا، فيجري خلفه حسن يطارده وسط البرسيم:

- لأ قد ط... يا تخين يا فشلّة!

تنزلق قدم سلامة في البرسيم فيسقط على وجهه (زرع بصل)، فيتوقف حسن ضاحكًا..

❖ ❖ ❖

ينسحب حسن من ذكراه وتنسحب معه الابتسامة العالقة من واقع الذكرى.. نظر إلى باكية السيارات.. لم تصل سيارة طنطا بعد.. وضع حقيبته على ركبتيه يستدفئ بها، ثم عاد أدراجه إلى حيث أدراج الذكريات التي لا تزال مفتوحة..

❖ ❖ ❖

وقف حسن في مكتب الجريدة مطأطئًا خجلًا أمام رئيس التحرير الذي يمارس معه هواية الخطابة منذ نصف ساعة.. تململ حسن في وقفته التي طالت كأنه تلميذ متسرب.. زاغت عينه من النافذة الزجاجية المطلة على ميدان رمسيس فطاف ببصره هاربًا من بذاءة هذا الثقيل.. الناس تتزاحم عند نزلة المترو.. ويتزاحمون عند الباب الحديد.. ويتزاحمون عند فتحة التروماي.. ويتزاحمون

عند سيارات السلام والعاشر.. وعجوز ينزل ببطء ممل من باب الأتوبيس فيقطع الأتوبيس الطريق على السيارات خلفه، فيرتفع ضجيج (الكلاكسات) المتعجلة، فينزل سائق التاكس كاظمًا غيظه ويحمل العجوز بين يديه ليختصر عليه رحلته الشاقة إلى الرصيف ويفتح الطريق والناس يتابعون الموقف من عرباتهم ضاحكين.. لوح رئيس التحرير بورق الدشت في غضب:

- يا أستاذ ده ريبورتاج تافه ما يعملوش عيل في إعدادي..

أفاق حسن وسحب نظره مضطرًّا من بانوراما رمسيس، وقرر أن ينهي ذاك النقاش السخيف، بكلمات رسمية محفوظة تقال في مثل هذه المواقف:

- يا ريس أنا...

لكن رئيس التحرير استبقه ونهض غاضبًا أو مدعيًا الغضب يريد أن يسمع منافسيه الخارجين للتو من مكتب الإدارة ويري الطموحين سطوته:

- علشان تنجح في الصحافة يا أستاذ لازم تجيب جديد.. مش كل اللي كتب حرف في جريدة بقى كاتب ومحلل..

وبعدما يتأكد أن الكلام وصل للمقصودين، يعود ليطلق رصاصه على المسكين:

- الناس هنا مش عايشين ورا الجاموسة يومهم زي بكرة زي بعده.. الناس هنا بتّابع الفضائيات والنت والوكالات.. عيش

وسط الناس واغرق في الشوارع واعرق شوية..

ثم ألقى رئيس التحرير الأوراق على مكتبه:

- اتفضل جمع التقرير تاني وعيد الصياغة..

لملم حسن أوراقه سعيدًا أن المواجهة انتهت، لكن قبل أن ينصرف لمح رئيس التحرير ثغرة أخرى يكمل بها وصلة الردح، فأشار إلى جيب قميصه المقطوع من أعلاه:

- وبعدين اهتم شوية بلبسك يا أستاذ.. الصحفي الشاطر لازم ينتبه لهندامه..

❖ ❖ ❖

فجأة انتبه حسن لمكانه في زحام الموقف، تلفت حوله هل يرى أحد جيبه المقطوع، مد أصبعه ليقيم طرف الجيب ويواري خرقه، ثم انتبه على صوت السائق:

- طنطا.. طنطا.. طنطا..

التفت حسن ناحية السيارة مرتبكًا.. قد سافر كثيرًا من هنا إلى هناك.. لكن هذه المرة بطعم مختلف.. إنها بنكهة الفشل ورائحة الانسحاب:

- هل تنسحب يا حسن؟ ماذا ستقول لسلامة؟

اندفع الركاب إلى السيارة ليدركوا الأماكن المناسبة، رأى فلاحًا عجوزًا كاد يسقط على إثر دفعة من شاب عجول:

- وسع يا حاج.. هو إنت إيه اللي جابك هنا؟

حسن يرتد مدفوعًا إلى مشهد مضى منذ عامين أو أكثر..

❖ ❖ ❖

يقف أمام أبيه يستمع إلى وصاياه الأخيرة قبل أن يرتحل إلى عاصمة الأضواء:

- أهم حاجة ما تستعجلش يا واد يا حسن.. خليك صبور واستحمل للآخر.. مصر مش سهلة.. وأهل مصر مش سهلين.. واقبل من اللي بيعلمك وابلع حتى لو كان بيحدفك بالطوب.. يوم بعد يوم هتبقى انت اللي بتعلِّم.. أنا عايز أتشرف بيك وصيتك يسمّع من عزبتنا لحد طنطا..

❖ ❖ ❖

السائق ينادي: واحد طنطا.. واحد طنطا.. واحد طنطا..

هز حسن رأسه يسقط كلام أبيه، لم يعد هناك فائدة من تكراره؛ فأبوه في نظره لا يحسن إلا الكلام ولو جرب بنفسه لما تحمل مصر وزحامها وضيقها بضيوفها ولضرب رئيس التحرير بالحذاء.. انتصب وعلق حقيبته في كتفه، ليدرك المكان الأخير في السيارة.. سار خطوتين ثم تسمر مكانه مترددًا..

- ماذا سأقول لسلامة؟

لكن ضج في آذانه صوت رئيس التحرير في آخر لقاء:

- ما فيش فايدة يا أفندي.. أنا شايف إنك ترجع أحسن للغيطان.. أبوك الغلبان أولى بيك.. اتفضل..

صاح السائق يتمم جملة رئيس التحرير:

- جاي يا أستاذ؟

هز حسن عنقه في انكسار، ثم تحرك ناحية السيارة ببطء يجر قدميه كأنهما جوالي ملح.. فتح السائق الباب الأمامي.. توقف حسن عند الباب مترددًا في الصعود، والسائق مندهش من حاله:

- يالا يا أفندي..

نظر حسن إلى السائق يستعطفه في نظرة أخيرة إلى القاهرة كأنه مسجون مرحّل إلى مؤبّد، صاح السائق بصبر نافد:

- يالَّا يا أستاذ خلينا نمشي.. انت مستني حد ولَّا إيه؟

هز حسن رأسه بالنفي.. ثم ألقى بنظرة إلى من في السيارة كأنه يبحث عن أحد يعرفه، أو يخشى أن يكون فيها أحد يعرفه.. ثم مد قدمه ببطء واستقر بجوار السائق..

أدار السائق السيارة، وحسن يتلفت حوله يودع الزحام والركام، تحركت السيارة بطيئة خارجة من الموقف.. وقف السائق عند شباك التصاريح لحظات.. أسند حسن رأسه إلى الكرسي وأغلق عينيه ليغلق باب الذاكرة..

على بعد أمتار إلى الخلف.. قفز سلامة من السيارة التي وصلت للتو من طنطا.. تحرك بخفة ونشاط، يتلفت حوله سعيدًا منتشيًا

بالزحام.. يتأمل الوجوه الباسمة والقاتمة:

- حلاوتك يا مصر.. جايلك يا بنت الإيه!

ثم تحرك ليبحث عن مخرج من الموقف ليبدأ مشواره.. وقف متحيرًا من أين يخرج ومن أين يركب.. ما أكثر الاتجاهات في مصر! مر أمامه رجل مهندم فاستوقفه سلامة بأدب:

- رمسيس منين يا أستاذ؟

لكن الرجل مضى ولم يعره انتباهًا، فصاح سلامة خلفه:

- يا أستاذ.. يا رخم..

ثم قال يحدث نفسه:

- إيه البداية اللي مش حلوة دي! بس برضه ما يهمناش..

هرش سلامة في رأسه، يخاير بين الاتجاهات.. ثم اختار أحدهم:

- على بركة الله..

❖ ❖ ❖

ضريح

مر عام.. صورتها لا تفارقني في صحوي أو نومي، طيفها يجول معي أينما حللت أو ارتحلت.. قالت الحنونة شقيقتي:

- من هي؟
- لا أعرف
- عنوانها؟
- لا أعرف
- أوصافها؟
- أحفظها كأنها أمامي..

شردت ببصري بعيدًا إلى هناك حيث الضريح حيث المقام، حيث الزحام الذي لايتكرر إلا كل عام.. أرشد السائحين وأشرح لهم معالم المكان، هنا جثمان الإمام وهنا رحبة المسجد وهنا قناديل منذ ألف عام.. وهناك توقف بصري حيث رأيتها متلبسة خلف قضبان الضريح تتابعني باهتمام.. وجهها أبيض ملائكي، يستطيع ضعيف النظر مثلي أن يرى تفاصيله في الظلام.. ثغرها موقوف على الابتسام، عيونها الخضراء الحورية تائهة ناعسة كسفينة سوداء في بحر أبيض تتلاطمها أمواج الخجل والحياء فتزيدها بهاء.. جيدها طويل مصبوب كمسلات الفراعنة مع بعض المنثنيات.. وجنتاها قنديلان أحدهما وضعت فيه الشمس والآخر علق فيه بعض النجوم.. حركتها بطيئة حنونة تسند عجوزًا تشبهها

وتتوسل لرب الحسين.. استأذنت السائحين لحظات ودرت حول سور المقام أتخطى الناس نحوها.. لكنها تاهت في الزحام..

❖ ❖ ❖

جذبتني شقيقتي العطوفة من يدي: هيا بنا الآن..

نظرت لها دهشًا، فقالت تقنعني:

- اليوم ذكرى اللقاء..
- كلا هذا جنون..
- الجنون سيصيبك إن بقيت هكذا..

ثم أردفت:

- إن لم نجدها هناك.. ستجد دواءك في المكان..

أطرقت أفكر، لكن شقيقتي لم تدع لي فرصة للتفكير وجذبتني من يدي إلى هناك.. اندفعنا أنا وهي وسط الزحام.. تتحرك بجواري تتلفت يمينًا وشمالًا عسى تحدث المعجزة أو ينزل إليها وحي من السماء، أما أنا فقد أسكرتني نسمات المكان، فمكثت أستنشق بقايا عبير طيب تنفسته أنا وهي منذ سنة مضت كأيام.. همست لي شقيقتي العطوفة الحالمة:

- قابلني بعد ساعة عند الضريح..

ثم اندست في الزحام.. تبحث عن أوصاف بلا امرأة.. دلفت إلى المسجد، أكره منظر الذاكرين المتطوحين ناحية الضريح،

لكني أعشق باحته التي تغشاها سكينة ووقار.. ابتعدت عن السادة الذاكرين.. دخلت في الصلاة.. سجدت طويلًا ألجأ إلى رب قلبي.. تزاحمت دموع الضعف إلى عينَّي تستغيث بمن أراني إياها أول مرة أن يهون عليّ مس عيونها وعذاب خيال بلا وصال، ثم تضرعت والعبرة تخنقني:

- اللهم إني أتوسل بك إليك.. أذهب عني صورتها الآن..

ثم تراجعت أسترد الدعاء، وقد زاد نحيبي وبكائي:

- رب أنت أعلم بحال قلب قلبته.. اغفر لي نظرتي، وقدر الخير ولو كان في نسيانها..

كدت أتراجع أيضًا عن هذا الدعاء، ترددت قليلًا.. لكني عزمت ورددت:

- ولو كان في نسيانها.. ولو كان في نسيانها..

ثم أشفق قلبي على قلبي، فاستأذنت ربي في المباح، أن أحتفظ بصورتها في الخيال وأن ألجأ إلى ضريح حبي الذي ولد ودفن هنا، مرة كل عام.. رفعت من السجود وقد نفضت عن صدري حملًا ثقيلًا.. شهقت شهقة طويلة من ذاك العبير حتى يكفيني إلى آخر العام..

اخترقت شقيقتي تجمعات رجال مثلي سكارى الوجد والهيام لكن لهم ضريح ولي ضريح.. صاحت سعيدة وهي تلوح بيدها:

- وجدتها..

ابتسمت لها وأنا أعلم أنها بالطبع رأت شبيهة لها، فهي لا تعرف سوى الأوصاف.. صحت كي أسمعها فأسمعت كل الزائرين:

- عقدت العزم ويكفيني الخيال.. اطمئني ذهب الداء..

كررت شقيقتي بحماس وبصوت أعلى من صوتي:

- صدقني وجدتها..

بلعت لعابي أخشى أن أكشف عن قلبي الغطاء ثانية.. سامحك الله يا أختي.. سحبتني من يدي بقوة نحو الضريح.. همست لها حتى لا يسمعني المتطوحون:

- إني لا أؤمن بالضريح..

- إنها هناك..

- أنت واهمة..

اشتد الزحام.. عبيرها يملأ المكان روحها حاضرة في المكان.. أشارت لي شقيقتي:

- ها هي هناك..

مدت بصري ببطء إلى هناك وأنا على يقين أنه تخمين بصرها الخداع.. تابعتني شقيقتي مدققة في عيني وهي تهمس متوسلة برب صاحب الضريح، لكن لحظات ورأتني أرتد إليها مطرقًا.. أدركت شقيقتي أن أملها قد خاب..

ألقيت بوجهي على قضبان الضريح وانفجرت في البكاء،

التفت الجميع حولي بنظرات مشفقة.. ربتت شقيقتي على كتفي تعتذر وهي تشاركني البكاء، لكني كففت دمعي ودمعها، ونظرت لها مبتسمًا:

- هي.. هي..

أطلقت شقيقتي زغرودة فارتج لفرحتنا الضريح وبدأنا مراسم اللقاء..

❖ ❖ ❖

عروستي

قصة طويلة

-١-

سألت سارة قرينتها، هل هي التي أخطأت بالأمس في حقه عندما تسرعت في قبول الدخول في اللعبة، أم هو الملام؟ الصبية فردوس لا تستطيع أن تحكم بشكل منصف فهي بأي من الإجابتين ستُغضب سارة.. سواء أنصفته وظلمتها، أو ظلمته وأنصفتها، فألقت الكرة في ملعبها:

- أنت الأدرى يا بنت الناس

شردت سارة تحدث نفسها.. هو دائمًا الذي يتوانى، و يكسل عن العمل من أجلي، فهو إذا شئنا الحقيقة.. نعم إذا شئنا الحقيقة.. هو الذي ضحى بي بالأمس..

صمتت برهة ثم غلبها حنانها، فعادت تتهم نفسها بأنها بالفعل تسرعت بالأمس، فتؤنب نفسها: ما كان ينبغي لي أن أقبل غيره حتى أعرف عذر غيابه.. بل كان يجب عليّ ألا ألعب من الأصل.. لكن..

لا تتم سارة حديث الخاطر الذي استرسلت فيه، حتى يقطع تفكيرها ظهوره المفاجئ عند مدخل البيت صاعدًا إلى شقته.

فوجئ بهما عمر فارتسمت على وجهه شبه ابتسامة، سريعًا ما انسحبت؛ فقد تذكر عهده الذي أخذه على نفسه منذ البارحة بعد

الخيانة العظمى، فحاول بمكر تعلمه منذ عهد قريب أن يخفي أية مشاعر تجاه تلك الخائنة، حيث انتوى أن يعاقب المدعوة سارة على ما اقترفته من جرم في حق رجولته.. بلع عمر لعابه وجمع تجاعيد وجهه فوق حاجبيه، وألقى تحية على فردوس متعمدًا تجاهل سارة:

- سلام عليكم..

انتبهت سارة لحاله الجديد، وسرعان ما شعرت بموقفه الرجولي الذي اتخذه، وبدأ يمثل دور الزوج الهاجر لزوجته مع هيامه بها، فبادلت هي هجرانه باستكانة كرد فعل طبيعي في محاولة لإطفاء النار في مستهلها، فلا تبادله غطرسة بغطرسة رغم كبريائها القاسي مع الآخرين، فأبدت له سعادتها بطلّته، واستعدت كي تدنو منه تحدثه، فاستوقفتها فردوس المنفصلة معنويًّا عنهما بوكزة في جنبها كأنهما مراهقتان في السادسة عشرة، وهي تخبئ فمها خلف راحتها.

فردت سارة لها الوكزة بوكزة كي تتحشم، وحاولت سارة أن تلملم حياءها الذي بعثره رؤياه، فقالت سارة لعمر تهرب من «قلة خشا» صاحبتها:

- نحن في طريقنا إلى حوش عم بكر؟ ألن تأتي معنا؟

سارعت فردوس بالإجابة نيابة:

- بالطبع سيأتي، وهل يكون للعب معنى دون عمر؟!

وكزتها سارة ثانية كأنها تقول لها: اخرسي أنت.

وقالت لعمر في دلال يتمنى أن يتلقاه أي غلام متعوس في شلتهم الكريمة:

- ألا زلت غاضبًا؟

أخذ عمر نفسًا عميقًا، وتصرف كفقير قح عثر فجأة على كنز من ذهب، فتقمص دور أحد أبطال سينما الأربعينيات، وبرزانة وحكمة ونظرات كبيرة عن سنه، شكا سارة إلى سارة، وحكا ما كان منها بالأمس، وعاتبها وأنبها، كل ذلك في صمت، ثم أحل عليها رضاه السامي فنطق أخيرًا، وقال بغطرسة تخفي رغبة في قليل من الرجاء:

- كلا لن آتي ثانية..

ثم وقف أمامها قليلاً ينظر إليها لا يدري ما هي الخطوة القادمة، ثم ها هو يتصرف بغباء الفقير القح نفسه، الذي ذهب عقله فألقى بكنزه إلى البحر، فانصرف من أمامها مضاعفًا من عناده صاعدًا الدرج نحو شقته، وهو لا يدري ما وقْع ذلك المشهد التمثيلي الأحمق على أنثى مثل تلك المتمردة سارة.. هل ستناديه؟ هل ستستعطفه؟ هل ستعلن خطأها وتعتذر؟ أم؟ وكانت.. أَم!

اعتبرت سارة تصرف عمر تماديًا في إهانتها، وهي لم تجن ذنبًا كي تعاقب به.. هل ذنبها أنه تكاسل عن المجيء للحوش في الوقت المناسب؟! وحتى إن كانت أمه قد منعته كما قال، فهو عذر أقبح

من ذنب، ألا تستحق هي أن يغامر من أجلها؟، ألا يتحمل علقة ساخنة من أمه لأجلها؟!

توقف عمر عند باب شقتهم بالطابق الأول بعد الأرضي عند البسطة الثانية، وبطبيعة الحال أحس إحساس الفقير القح الذي احتضنه نحسه ثانية، فوقف ملصقًا وجهه للباب وهو يضرب أخماسًا في أسداس ويعيد ترتيب أوراقه، ثم استرق النظر نحو البسطة الأولى في مدخل البيت، عساها!

لكنها للأسف كانت قد انصرفت غير آسفة عليه على ما بدا، وهنا ضرب عمر الباب بغضب الفقير القح الذي أدرك أخيرًا حجم حمقه، ثم أطرق شاردًا غير عابئ هل سيُفتح له أم لا، ومضى يفكر في أمر سارة المحير، يحدث نفسه: هل بالفعل أنا الذي تكاسلت، ولم أفعل ما يليق بمثلها؟.. لكن أمي بالفعل منعتني.. ولكن.. ولكن كنت أستطيع أن أهرب من رقابة أمي ككل يوم.. نعم لقد أخطأت.. سامحك الله يا أمي..

قطع تفكيره صوت أمه الهادر يأتي من الداخل، وقد اشتعلت المعركة بينها وبين أخيه الأكبر كالعادة، فلم يحاول عمر أن يعيد الطرق ثانية، ورجا الله ألا تكون أمه قد سمعت الطرقة الأولى، وآثر السلامة والنجاة من بطش الأيدي واللسان وانتظر نهاية المعركة ووقف إطلاق النار، وخطط للدخول عندما تبدأ المفاوضات، فطفق تارة يستمع لشجارهما الشجي، وتارة يشرد في

أزمته المتفاقمة مع الآنسة سارة..

علا صوت أمه وهي تصيح في خليل:

- أبوك تزوجني وهو ابن ثمانية عشر، لم يسل والده مليمًا.. أنت على عتبة الثلاثين.. ماذا فعلت؟ ألقيت بظهرك على كرسيك وجلست تندب عمرك كالعوانس.

أراد خليل أن ينطق فقال ما استطاعه:

- أنا..

- أنت فاشل، لا تليق زوجًا لها ولا لغيرها، تخرجت منذ سنوات وأنت محلك سر، صدعت دماغنا بشهادتك التافهة، وكأنك الوحيد الذي نلتها..

❖ ❖ ❖

عمر مطرقًا أمام الباب يفكر في سارة، ويعيد على ذاكرته شريط الأمس الكئيب، ويسائل نفسه: هل فضلتْه عليّ؟ أم إنني أخطأت لأنني وصلتها متأخرًا؟ أم هي بالفعل تراني كما ترى أمي خليل.. تافهًا فاشلاً.. ثم يقطع حديثه بحديث:

- كلا.. لست مثل خليل، أنا... أنا..

لكن لا يستطيع أن يهرب من حقيقته..

- يبدو أنني بالفعل فاشل، وإلا ما صارت لغيري بالأمس.. وما كنت تصرفت معها الآن بتلك الحماقة..

ثم يعاوده حمقه:

- لكن هي التي أخطأت.. هي التي تعجلت.. بالتأكيد كانت تعرف أنني قادم ورغم ذلك أرادت أن تغيظني، وتثبت أنها الأميرة التي يتسابق إليها الفرسان.. كلا..

انتابت عمر نوبة غضب عارمة وكبرياء وضغط على فكه الصغير، ونفس عن غضبه بضربة على الباب بقبضته الصغيرة وهو لا يشعر، فأفاق فجأة على يد أمه قد فتحت الباب بغضب وجذبته من ياقته إلى الداخل:

- تعال أيها الفاشل الآخر..

دخل عمر يتفلت من بين قبضة والدته، التي دفعته:

- اذهب واغسل يدك كي تتغدى مع أخيك..

خليل ينصرف إلى حجرته مغاضبًا:

- لا أريد الغداء..

تنهدت الأم ونفخت في غضب، ثم لانت قسوتها قليلًا:

- ولد! .. خليل..

دلف خليل إلى حجرته وأغلق الباب بعنف، فاستغل عمر الموقف؛ كي يصيد جرعة حنان من أمه الغالية لا تتكرر كثيرًا، فتصرف بنفس طريقة الفقير القح إياها:

- وأنا أيضًا لا أريد الغداء..

فالتفتت إليه أمه غاضبة، لتقول على غير ما توقع:

- وفرت يا محروس.. والآن ادخل حجرتك كي تذاكر..
- نحن في الإجازة..
- ماذا ستفعل إذن؟.. أظنك ستلعب مع الصغار إياهم.. لو فعلت ستحرم من الغداء ومن العشاء أيضًا..

انصرف عمر إلى حجرة نوم أمه مغاضبًا أو مدعيًا ذلك مثل خليل، وأغلق الباب هو الآخر بعنف، ثم انفرد بنفسه في الحجرة سعيدًا بذاك السيناريو، ودعا الله ألا تلحق أمه به، فوقف قليلًا بجوار الباب ملقيًا بأذنه خلفه حتى يطمئن أن أمه لم تأت وراءه، ثم رنا ناحية الدولاب وقد راقته فكرة خاصة بسارة، وسنح له تنفيذها، فتحرك نحو الدولاب بسرعة وفتح ضلفاته يفتش عن شيء ما.. لكن قبل أن يدركه فاجئته أمه، ودفعت عليه الباب..

❖ ❖ ❖

-٢-

في حوش عم بكر وصل الأطفال في ميعادهم بعد العشاء مباشرة.. أصوات متقاطعة وهرج ومرج، هذان يجريان يتسابقان، وآخران يتشاجران على إطار عربة قديم، وطفلة تعاير الأخرى بشعرها المفلفل، وآخر صغير ضعيف لا تسعفه قوته لمناهدة الأشقياء فجلس ووضع رأسه على قبضته ومضى يتابع بشغف، وهكذا بدا أنه لاكبير للميدان يقوده وينظمه.

وعلى طرف الحوش جلست فردوس بجوار سارة في ركن شبه مظلم، ترجو سيادتها وتستعطف جلالتها أن تقوم لتلعب معهم، وسارة الحزينة ترفض وتصر على رفضها، وتعلن أنها ستكتفي الليلة بالمشاهدة كحال ذلك المسكين الصغير.

بعد قليل طل حودة زعيم الشلة وأكبرهم سنًّا وصاحب الحق في البدء والوقف والقطع والوصل والعزل والفصل، والجميع يقر له بذلك المقام ولا ينازعه فيه أحد، فكلهم يحبونه..

ولج حودة إلى الميدان، لفتته جلسة سارة وفردوس منفردتين في ناحية الحوش، فدنا منهما:

- السلام عليكم يا عرب..

فردوس:

- وعليكم يا بيه.. أين كنت كل هذا؟ أم التأخر داؤكم كلكم؟
- ماذا تقصدين؟

فردوس تمسك بيد سارة تجذبها، وهي تردف:

- لا تأخذ في بالك.. اذهب هدئ هؤلاء المجانين وسنأتي وراءك..

انصرف حودة إلى وسط الحوش حيث المجموعة الأكبر، وحيث تنطلق من هناك صافرة البدء.

انتزعت سارة يدها من قبضة فردوس تعلن رفضها لاقتراحها، لكن فردوسا لم تمل تمنع سارة، وهي تعرف سبب غضبها، فقررت أن تكلمها بصراحة قد تكون جارحة، فتبدي لها وجهًا آخر لم تره سارة في حديث فردوس عن عمر:

- صراحة يا سارة أنا لم أعهدك بهذا الهوان..

انتبهت سارة نحوها، فأردفت فردوس:

- هو قال لن يأتي للّعب رغم أنك طلبت منه ذلك، بل اعتذرت له وكدت تقبلين يديه، إذن فعلام نهتم بمن لا يهتم بنا؟

أطرقت سارة تفكر في ذاك الكلام المنطقي السديد.. وفردوس تابعت حديثها وهي ترى نتائج على وجه الآنسة:

- الرجال يزيدون دلالاً إذا ما استُعطفوا، وأنت الكل يرغب في

اللعب معك.. إلا هو، إذن هو الخسران..

وهكذا ظلت فردوس بها حتى استفزت فيها كبرياءها الذي كان يتوارى مع ذكر عمر، وبالفعل جاء الدواء بنتيجته على الفور، وانتصبت سارة ملقية بمشاعرها خلف ظهرها، وقد قررت أن تعتبر كأن شيئًا لم يحدث.. وتقول لنفسها: العين بالعين والسن بالسن.. جاء عمر أم لم يأت.. لن يختلف الأمر كثيرًا.. علام نحرم أنفسنا من أمتع الأوقات بسبب أناس لا يهتمون بنا؟!

لكن هيهات، سارة تراوغ نفسها، وما في القلب في القلب.. وحتى لا تعطي لقلبها فرصة؛كي يصحو؛ ألقت بنفسها وسط الدائرة المهرجة عسى الأصوات تبتلعها وتنسيها همها، وبجوارها فردوس قد انتصبت في الوسط وهي الطولى فيهم، واستعدت لتصيح وتجذب سائر الأطفال نحو الدائرة بعد إشارة من الزعيم حودة، وكأنها تعلن بداية مزاد علني:

- بسم الله.. واحد.. اثنان.. ثلاثة..

انتبه الأطفال إلى المذيعة صاحبة الصوت القوي، وانجذبوا نحوها في لهفة، والتفت الدائرة سريعًا حول فردوس وحودة وسارة.. وتطلع الغلمان إلى حودة في انتظار تصريحه السامي؛ كي يعلن قرار بدء اللعب، وما نوع اللعب، وهل سنلعب مثل أمس عريس وعروس كما هي أمنية بعضهم، أم سيؤثر حودة السلامة منعًا للمشاكل مثل التي حدثت بالأمس؛ حيث انتهت الليلة بثورة

عمرية قام بها المدعو عمر اتهمهم فيها جميعًا بالخيانة، وكاد أن يشعلها معركة ويضرب العريس المنحوس، لكن الله سلّم، وكفى المؤمنين القتال.

وقبل أن يصرح السيد حودة بقراره طل عاطف من وسط الأطفال معلنًا عن شخصه الفذ.. غلام طويل بدين وسيم في الحادية عشرة من عمره، يبدو واثقًا من نفسه أكثر من اللازم.. تقمص بحكم وضعه المالي والاجتماعي – فهو نجل لجزار - دور الزعيم المبجل على شلة غلمان يتبعونه، فقال بلهجة مؤدبة تخفي صيغة متعجرفة تريد أن تسرق من حودة إحدى وظائفه:

- هيا يا حودة سنبدأ لعبنا بعريس وعروس.

أثار عاطف لدى سائر الغلمان رغبة كامنة، فالكل يدرك أن اللعبة ليس لها إلا عروس واحدة، وكل منهم يتوق أن يكون عريسًا ليلة ما، وقد صار الأمر أكثر سهولة بعد غياب الفتى عمر عن الميدان وإعلانه مقاطعة الجميع.

التفتت سارة ناحية وصيفتها فردوس تستقوي بها وتستشيرها، هل تستمر في هذا الدور؟ إذن ماذا تفعل لو طل عمر فجأة؟ فترد فردوس النظرة بنظرة ترجمتها: اتفقنا على خوض التجربة من جديد، ومن باعنا نبعه.

صمت حودة قليلاً يتطلع إلى رغبات سائر الشعب بما يسمعه من همس بدأ يعلو طنينه، وبما يراه في عيونهم من أمان، ورغم

أنه لم يكن يريد أن يبدأ بهذه اللعبة، وكان يود تأخيرها إلى آخر الليلة لحاجة في نفسه، لكن تزاحمت عليه الأصوات المهمهمة، وعلت أكثر بين عاطف وأنصاره وغلامين آخريْن يمنّيان نفسيهما بالمنصب، وبادرت مجموعة منهم تشارك في البرلمان:

- نعم يا حودة.. نلعب عريس وعروس.

بدا حودة مترددًا، ثم نظر إلى فردوس وسارة، كي تعيناه على اتخاذ القرار؛ فلم يلحظ ما ينبئ عن عدم رغبتهما في إقامة اللعبة مبكرًا، وعليه لم يجد بدًّا من الموافقة:

- إذن هيا.. سنلعب عريس وعروس.

الأطفال يصيحون:

- هيييييييييه

ثم يطرأ خاطر لحودة يريد أن ينفذه لحاجة في نفسه:

- لكن بشرط.. العريس سيدفع مهرًا تحدده العروس.. سنشتري به شربات وسكرًا ونسقي جميع الموجودين.

فصاح جميع الصبية على غير ما توقع حودة:

- موافقون.

فنظرت فردوس إلى حودة نظرة شامتة تقرعه على فكرته الغبية؛ حيث أدركت بسهولة ما وراءها؛ فقد أراد أن يعطلها حتى يأتي صديقه، لكن انقلب السحر على الساحر؛ فمن الطبيعي أن يوافق

الجميع، فأغلب الغلمان، إما طامعون في منصب العريس ومن ثم سيغامرون بالملاليم التي يمتلكونها، أو محايدون طفيليون سيحققون الفائدة من وراء مهر العريس أيًّا كانت جنسيته.

التفتت فردوس إلى سارة التي تجاهد نفسها كي تندمج في الحفل الذي يوشك أن يبدأ، وفردوس لا تزال تقوم بدورها المخلص معها تريد أن تخرجها من كآبتها بشكل عملي:

- إذن.. سارة هي العروس كما كانت بالأمس..

صاح الغلمان بحماس شديد متناسين ثورة الفارس عمر:

- موافقون

لكن فجأة أطل السيد أحمد مندفعًا وسط الأطفال كأنه فتوة الحارة، غلام بدين في الثانية عشرة من عمره، لكن مظهره يوحي بأنه أكبر من ذلك، رنت إليه سارة وقد أخذتها طلته؛ فهو الصديق المقرب للفارس الغائب، وكانا يأتيان سويًّا؛ فزادت حسراتها حسرة، وتيقنت أن عمر ركب عناده ولن يأتي بالفعل، وبدوره تدخل أحمد ليفعل أي شيء من أجل ذكرى صديقه غير المأسوف عليه:

- لكن يجب ألا يكون عريس الأمس هو عريس اليوم..

تبادل عاطف وأنصاره النظرات، وكأنهم كانوا ينتظرون مثل هذه المعارضات الشعبية غير الواعية، فقال عاطف بغطرسة:

- ولم لا؟ ما دمت سأدفع المهر في نهاية اللعبة، هل ذنبي أني معي نقود!

استفزت كلمات عاطف المغرور غضب أحمد المتهور، فتحرك نحوه ملتمسًا أي مبرر لضربه، وهو يصيح:

- هل تعايرنا أيها التافه!

تصايح الأطفال أنصار عاطف وأحاطوا به يحمونه وهم يلوحون ضد أحمد الذي ظهر من خلفه هو الآخر اثنان أو ثلاثة، أو أنصار العريس المفقود عمر، وأوشك الاشتباك أن يقع، فصاح فيهم حودة، ليفض المعركة قبل نشوبها:

- كفى و إلا سأنهي اللعب قبل أن يبدأ..

ساد الهدوء، وبلع الأطفال غضبهم، وعلا صوت حودة مردفًا:

- من يرد منكم أن يكون عريسًا، و يستطع أن يدفع المهر الذي تحدده سارة.. يرفع يده.

دون تردد رفع عاطف يديه.. ثم آخرون بعد تردد حيث رأوا أنهم ليسوا أقبح من هذا البدين، أما أحمد فقد أعلن استياءه وتراجع للخلف معترضًا بشكل صامت على هذه المهزلة، بعد أن افتقد الميدان فارسه الحقيقي..

أما حودة فرغم ولائه المعلوم لعمر، إلا أنه لم يجد بدًّا من أن يقوم بدور القاضي العادل دون أن يحكم رغباته الشخصية، فالتفت إلى سارة قائلًا:

- إذن عليك الآن أن تحددي قيمة المهر يا سارة..

صمتت سارة قليلًا مترددة، وهي تنظر نحو أحمد الذي يذكرها

بعمر، ثم تنظر نحو فردوس التي تحدجها كأنها تقول: إياك أن تتراجعي.. ابدئي عهدًا جديدًا..

فقررت سارة أن تتقمص دور بنت الوالي، فقد خسرت فارسها، وإن كان ولا بد أن تستمر في هذه اللعبة السخيفة دون فارس يناسبها، فلا بد أن يكون التعويض جزيلًا..

- مهري خمسة جنيهات..

صُعق الأطفال وبلعوا لعابهم من هول المبلغ وأخذوا يهمهمون:

- كلا، هذا كثير..
- إنها مغرورة وتبالغ..
- هل صدقت أنها عروس بالفعل!

تدخل حودة وقد وجدها فرصة كي ينهي اللعبة، وقد أحس أن ذلك كان جزءًا من غرض سارة، فسأل وهو يعرف الإجابة مسبقًا:

- العروس قد حددت مهرها كما اتفقنا، هل منكم من يستطيع دفعه؟ أم ننهي اللعبة؟

بُهت الأطفال بالطبع، فمن من المتقدمين لهذا الشرف العظيم يستطيع أن يدفع خمسة جنيهات في عروس تمثيل! أما الأخوة الطفيليون فقد خابت آمالهم هم الآخرون فقد كانوا يودون تحلية أفواههم والخروج بأي مكسب.

أما السيد أحمد فقد انتشى بما آل إليه الموقف وقال في سره: الله

سلم يا صديقي.. ساد الصمت قليلًا.. ثم قطعه السيد عاطف ثقيل الظل بالنسبة لمعظم الواقفين.. فأعلن بكبرياء وهو يضع يده على جيبه:

- أنا أدفع الجنيهات الخمس..

صعق أحمد وكاد يقفز على عنقه ويفتك به لكنه لم يجد مبررًا.. وحودة استقبل قرار عاطف بخيبة أمل، فضغط على فكه غيظًا لكنه لم يبد ذلك، انطلقت زغرودة مدوية من فردوس بشكل عفوي فأغلقت المشهد وفتحت آخر، فهي لا يختلف معها الأمر كثيرًا، وكل ما يهمها سعادة صاحبتها وخروجها من كآبتها.

ارتبكت سارة وقد بدا الأمر جادًّا، وفجأة حضر بخاطرها عمر، فها هي اليوم تخوض التجربة عن رضا كامل منها وبتدبيرها هي، وبنفس سيناريو الأمس، ماذا سيقول عنها الآن؟ لكنها تحاول أن تصرف عن ذهنها ما يعكر حفل زفافها، فألقت بنفسها ثانية بين الجماهير التي تشعرها بقيمتها أكثر من ذاك المدعو عمر.. فعلا الصياح بين أنصار البطل عاطف المحيطين به:

- هيييه.. عا طف.. عا طف.. عا طف

حدج أحمد - الذي انتحى قليلًا - العروس سارة، وهو يحدثها بنظرات غاضبة في صمت: هل ترضين غيره للمرة الثانية في ليلتين متواليتين؛ لتؤكدي الظنون؟ يا لك من خائنة! إنكن كلكن سواء.. فالتقت عين سارة بعيني بأحمد تقرأ ما فيهما، ثم انسحبت بعينيها خجلًا من موقفها لتظل في اللعبة متناسية الماضي.

لكن لم تسر السفينة كما يشتهي عاطف فلم يبق في الميدان وحده؛ حيث ظهر في الميدان فتيان آخران قررا أن يدخلا السباق كي يعلو الخط الدرامي و يزداد توترًا ومع التوتر تأتي الإثارة؛ فليس السيد عاطف وحده سليل الجزارين.. رفعا الغلامان أيديهما يعلنان عن أنفسهما كمنافسين، وأعلنا موافقتهما على المهر المسمى.

انتشت سارة أكثر، هكذا تحلو اللعبة، هكذا شأن الأميرات، تناست فارسها أكثر، وقد أرضى شكل السباق غرورها الكامن، فتقول في نفسها: فليأت ليشهد الغلمان يتسابقون لدفع أغلى المهور من أجلي، أو فليبق جالسًا بجوار أمه!

أعاد حودة ترتيب أوراقه بعد أن أخذت اللعبة شكلًا جديدًا، فلم يدر من يختار وكلهم بنظره سواء، فقرر أن ينهي النزاع بين الأطراف الثلاثة بأن يترك الاختيار للعروس، فتوجه إلى سارة:

- هيا يا سارة، عليك اختيار واحد من الثلاثة الآن..

دخلت سارة في موجة أخرى من الزهو، وكل الأعين متجهة إليها تنتظر إشارتها السامية، ها هي ملكة متوجة الكل ينتظر إشارتها كي يكون صاحب الحظ الأسعد، أين أنت أيها الفاشل كي ترى؟

انتقلت سارة بين الثلاثة بنظرات زاهدة، ثم أعادت النظر وصوبته، ثم نضبت بشاشتها فجأة حينما وكزها قلبها المتيقظ؛ فشردت لحظة، واختلست النظر إلى الأفق القريب عند بداية

الشارع لعله يظهر فلا يزال هو الفارس، والمرأة إن جذبتها النقود بعض الوقت تجذبها أكثر القوة والرجولة وصيت الرجل بين الرجال، لكن أية رجولة وأية عزة وهو لا يزال يخشى علقات أمه! وعلى ذكر أمه تجهمت وأسكتت قلبها الأحمق، وارتدت ببصرها ثانية تتفحص الغلمان حولها، وقد بدأوا يضيقون بانتظار إشارة سموها، ثم شردت بعيدًا وقد رفعت وهي تحدث نفسها تريد أن تتخلص من ذاك الهاجس: هو الذي أخطأ بالأمس، واليوم يكرر الخطأ، ما علي لوم.. هكذا هم الأولاد يجرمون ثم يحملوننا أوزارهم، ويريدوننا أن نسامح ونضحي.. إنهم ظالمون.. إنهم ظالمون..

عادت سارة إلى عالمها تتفحص الفرسان الثلاثة الذين لا يرضي تزلفهم غرورَها، وهم من حولها مترقبون متلهفون لمعرفة الفارس المختار؛ فكل منهم يمني نفسه بالفوز..

طالت فترة الصمت، فتدخلت فردوس متعهدة حفلة الزفاف مغتاظة:

- هيا يا سارة.. اختاري واحدًا وخلصينا.

انتبهت سارة ولعب شيطانها برأسها وقررت قرارها عقابًا للغائب، وأيضًا عقابًا لنفسها، نظرت إلى ذلك الثري المتطلع إليها السيد عاطف، تريد أن تجد حيلة؛ كي تتخيله فارسها.. تتخيل، لكنها سرعان ما تنفض هذا الخيال لا سيما وأنه يعتبر نفسه ندًّا لعمر، ثم تتفحص الغلامين الآخرين، لكن لا تستطيع الاختيار

وتعاف نفسها أن تكون لغيره ثانية فتنطق أخيرًا:

- أختار...

لكن، وعلى عادة أبطال السينما، يقطع هواجسها ويصل في وقت الذروة، ليفاجأ الجميع.

اخترق الجمع ونزل الميدان نزول المحررين، لا تعرف من أين أتى، ولا كيف.. فهو بصغر حجمة خفيف كالريش يمشي فقزًا ويظهر فجأة ويجري كالريح.. أخذتها المفاجأة، ولم تكمل جملتها التي بدأتها، فقطعتها تحملق فيه.

تحول الجمع بنظره إلى عمر الذي اخترق الدائرة، وهو يلهث من كثرة الجري، وهو يقول بمزاح:

- ألا تنتظروني أيها الخائنون..

فردوس لا تتمالك نفسها من الفرحة؛ لأنها تعلم مدى سعادة صديقتها، فتطلق زغرودة كالتي ساندت بها عاطف منذ قليل، وهي تنظر لسارة التي ابتسمت مع ظهوره ابتسامة عريضة، لكنها سرعان ما سحبتها متعمدة من على وجهها.

أنهت فردوس زغرودتها، وهي تتابع النظر نحو صديقتها غريبة الأطوار.. حاولت سارة المتكبرة أن تخفي سعدها الغامر الذي لم يلحظه أحد سواه.. نظر في عينيها يعتذر إليها، ويقر بأن الرجل يتحمل وزر ضياع عروسه كاملًا.. لكنها أصرت أن تستغل كيدها العظيم، وهي مصرة على أن تبدو غاضبة، فظلت صامتة عن الكلام والمشاعر.

بالطبع كان كثير من الجماهير سعداء بهذه الطلة، وقاد أحمد أنصار عمر بإخلاص في وصلة ترحيب غامرة، أما الثلاثة إياهم فقد أُسقط في أيديهم من المفاجأة، بعد أن ظنوا كل الظن أنهم قد تخلصوا منه إلى نهاية الصيف، خاصة بعد واقعة الأمس.

حاول حودة أن يخفي سعادته بحضور صاحبه بوازع من ضميره المهني حتى يبدو محايدًا، ثم قرر سريعًا أن يقطع حالة الفرح والقلق في الوقت نفسه التي زرعها عمر بمجيئه، متسائلًا:

- أين كنت يا عمر؟

عمر كأنه كان ينتظر السؤال ليجيب بغير كلام، فيمد يده في حقيبة بلاستيك سوداء بيده ليخرج قطعة قماش بيضاء، وهو يرفعها بفخر وهو ينظر إلى سارة:

- كنت آتي بهذه.. طرحة العروس، أليس لكل عروس طرحة!

إلى هنا لم تعد سارة تحتمل كتمان أحاسيسها، فتندفع مشاعرها -بشكل مؤقت- عبر ثناياها لينفرج ثغرها الصغير الذي حاولت أن تواري خلفه عقدها الزمردي كثيرًا، فتكشف الآن حجابه وتبتسم ابتسامة رائعة، كانت نارًا على المتابعين من العرسان المنتظرين، وبردًا وسلامًا على الفارس العائد بالطرحة، ثم ترنو إلى صاحبتها الماكرة فتتلقى منها نظرة مراهقة ماكرة تقول لها:

- على هذا تعشق النساء رجالهن.. تشتد رغبة الرجال فيبذلون الجهد في الوصول فتشتد رغبة النساء فيبذلن الجهد في العطاء بلا حدود.

ثم سأل عمر متوجسًا، متذكرًا لدغة الأمس:

- أخبروني أولًا.. من العروس؟ وهل اخترتم العريس؟

أجابته فردوس باسمة، وهي توكز سارة بجوارها:

- سارة هي العروس.. وهي التي ستخبرنا من العريس..

فردوس تكز سارة ثانية:

- هيا دعينا نلعب في ليلتنا هذه..

ثم تردف هامسة في أذنها:

- ما عادت لك حجة..

لكن سارة – غريبة الأطوار - يعاودها المس الشيطاني فتتذكر فعلته وتأخره وتركه إياها كجارية رخيصة بين أبناء الجزارين؛ فتتقمص من جديد دور العزيزة صاحبة السمو، فتجمد ملامحها الخارجية باقتدار، وتنظر نحو عمر الذي يبتسم لها، لتقول له بغير صوت: لن أرضى عنك بسهولة هكذا، فأنا سارة.. أنا الأنثى.. فلا تبادله الابتسام؛ فيقطب جبينه وقد خفيت عنه مشاعرها وانطفأت أمامه عيناها التي كان يعرفهما جيدًا.. فتوجس عمر الغرّ من السيناريو الجديد..

سارة بصوت قوي:

- وأنا.. وأنا قد اخترت

لم يمل الغلمان ولم ييئسوا رغم ظهور محطم الآمال، فعاد

الثلاثة يرنون إليها وينتظرون رضاها السامي.. دارت بينهم بعينيها، وهي تتسلى برؤية «تفاحة» حلوقهم تعلو وتهبط لتبلع لعابهم، وعاد عمر يحملق فيها مندهشًا لموهبتها التي لم يكن قد اختبرها؛ فتهرب ببصرها منه كلما اتجهت عينها نحوه كأنه خارج المنافسة، فازداد توجسه وهو يحدث نفسه: ترى هل سترد إليّ الصفعة؟ ترى ستنتقم لكرامتها؟ كم أخشى عجرفتها التي لم تعد تعترف بالعواطف! ثم يصوب عله يهدئ من روعه فيقول: كلا إنها في النهاية امرأة والمرأة يغلب حبها كيدَها.

لكن يتوتر عمر أكثر وهو يقلب أفكاره، فالمرأة أحيانًا تستحمق فيغلب عنادها حنانها، وتأخذها شهوة التمنع إلى شاطئ بعيد فتنقلب رغبتها إلى ضد ما سعت، خاصة إذا كان الرجل أحمق مثلها!

لا يدري عمر ماذا يفعل، فبالأمس كاد يضرب عاطفا؛ لأن الغلمان نصبوه عريسًا في غيابه، مبررًا ذلك بأنه كان العريس المختار وعلقة أمه منعته من الحضور، لكن الآن سارة هي التي ستختار بكامل إرادتها وهو بين المرشحين، ماذا سيقول لو آثرت غيره، وإن كان فقط لمجرد الانتقام؟!

أطالت سارة صمتها الممل.. بدأ الهمس داخل الدائرة التي انقسمت إلى أكثر من طائفة؛ إما طالب قرب، أو أنصار لطالب قرب، أو طالب مصلحة، أو فتيات قد اشتعلت الغيرة في صدورهن، لكن علا الهمس باسمين فقط: عمر.. عاطف، فاقترب أحمد من

سارة دهشًا يهمس لها قبل النطق بالحكم:

- ما دهاك يا سارة ألا ترين عمر؟

لمحه أحد أنصار عاطف فأزعجه انتهاك الصمت الانتخابي من الطرف المنافس، فأدرك أن الفتى يريد أن يؤثر على نزاهة الانتخاب، فصاح بها دون خجل:

- عاطف يا سارة..

تبادل عاطف وعمر النظرات كأنهما ندان بالفعل، ولا ينطقان ويتركان الدعاية لمديري أعمالهما، وقد صارت المعركة على المكشوف..

أخذت الحماسة أنصار العريسين عندما رأوا أنه لم يعد بد من إعلان الانتماءات، فتصايحوا، كل باختلاف انتمائه العريسي:

- عُو مَر.. عُو مَر
- عا طف.. عا طف

اختلطت أصوات الجميع:

- عو مر.. عا طف.. عو مر.. عاطف..

لم يرق لحودة أن يسير اللعب على هذا النحو؛لأنه يخشى أن ينقلب إلى شجار كأمس ويفلت منه الزمام، فصاح فيهم:

- كفى أيها المجانين.. اصمتوا من فضلكم.. ماذا يقول علينا المارة.. إنها مجرد لعبة.. ليست أكثر من ذلك..

صمت الأطفال ممتثلين لأوامر حودة، وأطرقت سارة بنظرها إلى الأرض، وفردوس ترمقها بغيظ ودهشة، غيظ لما بدا لها أن صاحبتها تتلذذ بالموقف، ودهشة لدهائها الذي كان مخفيًّا عنها، كيف تحولت براءتها بهذا الشكل! وعمر يقول في نفسه: يا لكيدك! كنت أظن أن اختيارك سيكون أسرع وأسهل من ذلك، ولكن يبدو أنني كعادتي أوهم نفسي بأشياء غير موجودة.. أنا فاشل!

رفعت سارة رأسها وتنقلت بنظراتها بين عمر وعاطف، غير آبهة بالفتيين الآخريْن.. لكن لم يحتمل كبرياء عمر أن يوضع في هذا الموقف أكثر من ذلك، فمسه هو الآخر طائف شيطاني غاضب، «فاستحمق» وقرر أن ينسحب بعدما رأى أن سارة قد وضعته في الميزان مع هذا العاطف، وكفى بها إهانة! فضلا عن أنها قد تختار عاطفا بالفعل.. ياللمصيبة! هنا ستكون قد مسحت بكرامته تراب الحوش وفضائه، فآثر الفتى السلامة.

لكنه قبل أن يعلن ذلك و ينطق بما لا يرضيها ولا يرضيه، سبقه حودة بقراره، وحسنًا فعل؛ حيث التفت بغضب إلى سارة قائلًا بقوة كعادته:

- أيتها العروس المغرورة المتعبة.. سأعد إلا ثلاثة لو لم تختاري فتى منهم.. سنختار نحن عروسا غيرك.. هيا.. واحد..

دفع أنصار العريسيْن بعمر وعاطف داخل الدائرة أمام سارة.. نظر عمر إليها قليلًا فقرأ في عينيها قرارها الذي صار يقينًا عنده،

فأخر إحدى قدميه، وترك عاطف في المقدمة.

- اثنان..

أنصار عاطف وعمر صامتون شاخصون.. لا يحركون ساكنًا.. يبلعون لعابهم، وينظرون إلى فارسيْهم تارة، وإلى السندريلا سارة تارة أخرى.

أخيرًا حسمت سارة المغرورة قرارها، وعفت عن أسيريْها، وقالت وقد عادت إليها براءتها ونزعت عن وجهها جلد الأنثى المتماكرة، وأرخت جفونها مطرقة إلى الأرض، هامسة:

- عمر..

حملق عمر في سارة كأنه يفيق من غيبوبة لتوه بدلو ماء بارد صب على رأسه، ثم ابتسم سعيدًا متنفسًا الصعداء، وتصايح أنصاره وهم يرفعونه على أكتافهم ليغيظوا عاطف وأتباعه:

- هيييييه! عو مر.. عو مر.. عو مر

تقبل سائر الغلمان الأمر الواقع وسرعان ما عاد إلى ذهنهم أنها لعبة؛ فتصايحوا مع الصائحين من أنصار عمر، لكن عاطف وأنصاره لم تكن روحهم رياضية بالقدر الكافي، وجن جنونهم للقرار الذي نصر عليهم الفريق الخصم، فتدخل أذكى القوم وأمثلهم طريقة، قائلًا:

- لكن العروس قد اشترطت المهر خمسة جنيهات، وعمر بالتأكيد لا يملكها..

انقطعت الأصوات فجأة، وأُسقط في أيدي عمر وأنصاره، وأومأ

عاطف إلى صاحبه رجل القانون المخلص يحييه على انتباهه؛ فالفتى معه الحق، و يملك الحق الدستوري بخلع العريس فورًا في هذه الحالة..

انخلع قلب عمر وغالبًا تدحرج إلى الناحية اليمين، ورنا إلى سارة وهو يبلع لعابه بصعوبة، لا يجد ما يقوله، وتمنت سارة لو كان قُطع لسانها قبل أن تسمي مهرها.

لكن أحمد - رضي الله عنه - يقوم بدوره المنوط به كمحامي دفاع، ليحرق آخر ورقات الفريق الخصم:

- كلا بل يملك المهر.. والدفع آخر اللعبة كما هو الاتفاق.

التفت إليه عمر دهشًا من تسرعه ووضعه في هذا «المزنق»، كأنه يسأله: من أين؟ وأنا لست ابن جزار!

فأجابه أحمد بنظرة مثلها: المهم أن تصير عريس سارة الآن، وآخر اللعبة يحلها الحلاّل..

❖ ❖ ❖

نفذ القرار ووضع العريس المناسب في المكان المناسب، وسلم عاطف وأنصاره أمرهما لله، وراحوا ينفذون ما تمليه عليهم روح الجماعة، و إن كانت الصدور لا تزال بها بعض الأحقاد، فهنؤا العروسيْن، وشاركوا في تجهيز الحفل الساهر مع سائر الغلمان.

كان حودة يتابع الأمر بقليل من الحماس، وقد ضايقه أن الأمر لا يسير طبيعيًّا ككل يوم، لا سيما وأن زمام الأمر يتفلت منه بين

الحين والآخر، فيقول هامسًا لنائبته فردوس:

- أرى أن الأمر لم يعد مجرد لعبة..

فتجيبه بنفس همسه، وهي تنظر إلى صاحبتها السعيدة، التي دنت من عريسها:

- وأنا أرى ما تراه!

- ترى لو كنتِ مكان سارة، من تختارين؟

سكتت برهة ثم قالت بذكاء:

- بالطبع صاحب الطرحة..

❖ ❖ ❖

شرع الأطفال في تجهيز المكان، ونهض كل يقوم بدوره حتى خصوم عمر الذين تقبلوا الأمر الواقع على أمل أن يتغير في الليلة القادمة.

ارتدى حودة زي المأذون وأمسك في يده بكتاب قديم على أنه دفتر العقد، وتطوع آخرون بإحضار الحلو والمشاريب التي تنوعت بين تراب في علب بلاستيك على أنه «كريمة كراميل» أو عصير مانجو متخيل في قراطيس ورقية صنعوها من الكتب الدراسية للعام المنصرم، وشموع ملونة متخيلة في أعواد حطب يابسة.

وعلى المسرح الذي هو عربة عم بكر «الكارو»، استعدت

السيدة فردوس لإلقاء أغانيها المتشابهة المكررة، ومن حولها الفتيات يزغردن، ويمسكن بأغطية الحلل كي يدققن عليها.

وعلى هذا النحو تهيأ الجميع لإقامة الحفل، وتلقت الفرقة الغنائية من حودة الأمر بالإعلان عن نفسها، وبالفعل توسطت فردوس فرقتها، وفي يدها صينية شاي تضرب عليها برنة جميلة، وأعضاء فرقتها من الفتيات يمثلن الكورال ويتابعنها في الأغنية والطبل.

أما العروسان فقد انشغلا بتجهيز كرسيهما المكون من حجرين كبيرين، وأخذا يزينانه بورق الكارتون وقطع القماش؛ حتى بدوا جميلين، ثم توجه المأذون نحوهما ومن خلفه الشهود، ومن خلفهم تحركت فرقة فردوس وهي تصدح بالغناء والزغاريد.

التف الأطفال حول العروسين وغرقت سارة في موجة سعادة، لكن لم تكن نشوة عمر في ذروتها فقد عكر فرحته تذكره لأمر المهر الذي قد لا يستطيع أن يوفي به فيبدو صغيرًا أمامهم وأمامها، وانتهز الفرصة عندما دنا منه أحمد ليهنئه بليلة العمر، وفي وسط هذا الصخب سأله عمر هامسًا:

- ماذا سنفعل في المهر يا فِتك؟

فيجيب أحمد باستهتار:

- لا شيء.. آخر اللعبة سنقول ليس معنا، ونكون قد فعلنا ما أردنا.

تبرم عمر من طريقة تفكير أحمد، وازداد انزعاجه وثقل عليه

همه، كلما فكر كم سيبدو صغيرًا أمام سارة وسائر الشلة إن لم يوف بالمهر، وضياعها منه غدًا، نضبت بسمته التي كان يمثلها، وشرد بذهنه يفكر: ماذا أفعل إذن، هل أذهب لأطلبهم من أمي فتضربني بحذائها وتقول لي: يا فاشل، أم أطلبهم من أخي المفلس؟

تلحظ سارة اغتمامه وهي مدركة سببه، ولو كان بيدها لأغنته؛ فكل ما كان يعنيها أنه الآن بجوارها وكفى بها نعمة، فدنت منه مشفقة هامسة كأنها زوجة بحق:

- لا تقلق.. ستُفرج إن شاء الله..

ابتسم لها عمر وتسرى بكلماتها كأنها السحر، وبدوا كأنهما زوجان قديمان؛ فتناسى عمر همه وتركها لله..

تقدمت نحوهما فردوس ومعها الحقيبة البلاستيك السوداء، أعطته لعمر ومعه بعض الغوائش البلاستيك الخاصة بها والتي سيقدمها كشبكة.. استخرج عمر الطرحة من الحقيبة وسط زغاريد وتصفيق وتهليل من الأطفال حوله، ثم اقترب من عروسه؛ كي يضع الطرحة على إيشاربها الملونة التي عقدتها على رأسها، وقد انقلب تمثيلها حقيقة وغرقت في خجلها، ولم تستطع أن ترفع بصرها إلى عريسها الذي شعر بأنه الفارس المغوار، وهو يردد في نفسه: ما أسهل الأمر لقد تزوجت من أردت، وأخي التعيس لا يستطيع أن يفعل ذلك.. إذن أنا لست فاشلًا..

لكن «كان غيرك أشطر» يا سيد عمر!

فمن قبل أن يضع الفتى الطرحة على رأس عروسته، ومن قبل حتى أن يكتب الكتاب! كان القدر يخبئ له أمرًا نزعه نزعًا من حفله السعيد إلى بعيد..

❖ ❖ ❖

صوت نسائي رقيق ضعيف أتى من أحد الطوابق الأرضية في نهاية الحارة المطلة على الحوش الذي يلعبون فيه، ينادي:

- عمر.. يا عمر..

سمع عمر الصوت لكنه لم يعره اهتمامًا، كأنه يخشى أن يُنزع من حلمه الجميل.

الصوت ثانية، وقد علا أكثر:

- عمر.. يا عمر..

قطعت فردوس أغنيتها، وتوقف على إثرها كل الهرج، وقد التفت الجميع إلى مصدر الصوت الذي لا يزال ينادي:

- عمر..

فردوس لعمر:

- أجب يا عمر..

التفت عمر إلى مصدر الصوت البعيد مندهشًا:

- من هذه؟

حودة يجيبه:

- إنها زهرة بنت عمك بكر.. زميلة خليل.. إنها تريدك..

أبدى عمر ضجره، وشق عليه موقفه، وتبادل النظرات مع سارة التي رفعت عنها حياءها قليلًا وعادت للواقع:

- أخبرها أنك ستأتيها بعد كتب الكتاب..

عمر بهدوء الراضي بالبلاء:

- لا يصح يا سارة.. سأذهب إليها لأعرف ماذا تريد، وأعود على الفور..

أعطى عمر الطرحة لأحمد، واستأذن حودة لثوان وانصرف نحو المنادي.

من جانبهم، كان عاطف وأنصاره يتابعون الموقف، وقد طافت بهم الأمنيات من جديد، وعاودهم الأمل يحبو، وقد وقف الأطفال كلهم يتابعون عمر وهو يسير اتجاه بيت عم بكر، نحو الفتاة، التي تجلس في النافذة وتحثه:

- أسرع يا عمر..

تقدم عمر مدققًا، ليتأكد من شخصيتها، فقالت له تعرفه بنفسها هامسة كأنها تخشى مراقبة:

- أنا زهرة يا عمر.. ألا تعرفني؟

- نعم أعرفك..

- لو رجوت خدمة هل تلبيها لي؟

دون انتظار موافقة من عمر، أخرجت زهرة ورقة من طيات ملابسها وقدمتها لعمر، وقد وضعت معها جنيهًا:

- هذا الجنيه لك إن أوصلت هذه الورقة لخليل وأتيتني بالرد الآن.. فهل تقدر؟

صمت عمر برهة ولم يمد يده لأخذ الورقة والنقود، ثم التفت خلفه ينظر إلى أترابه وعروسه التي تنتظره، ثم عاود النظر إلى النقود كأنه لم يرها في المرة الأولى.. فتذكر ما عليه من دين لا بد أن يوفيه أو يوفي جزءًا منه.. فرآه رزقًا ساقه الله إليه من أجل عروسه.. فلم يضع وقتًا وتناول الجنيه والورقة، قائلًا:

- أقدر..

تركها عمر مستديرًا ببطء متجهًا نحو أترابه، ماذا سيقول لهم؟ هل ينتظرونه؟ هل تتفهم سارة موقفه؟.. تقدم نحوهم وقد شغله أمره أن يسأل نفسه عما تحويه تلك الورقة، لكن على كل حال هو يعرف أن زهرة ليست سيئة كبعض الفتيات اللاتي يلعبن معه و يفعلن أشياء قبيحة، لكن هو ليس واثقًا من أخيه خليل!

اقترب عمر من الجمع وهو ينظر إلى سارة المترقبة، سأله حودة:

- هيه يا عمر!

حاول عمر أن يظهر الأمر بسيطًا:

- خمس دقائق فقط.. سأذهب إلى بيتنا وأعود على الفور..

ثم نظر إلى عروسه التي لا يرحمها بمفاجآته القاسية؛ فلا تكاد

تقتنص فرحة حتى يسلبها إياها بقسوة، وكأنه يتعمد ذلك.. حاول أن يعتذر إليها بعينيه و يستأذنها، وقبل أن تنطق أو ينطق حودة بالقبول أو الرفض، استدار عمر هاربًا من نظراتهم منطلقًا نحو بيتهم.

تابع الأطفال عمر بنظرات متحسرة على اللحظات الجميلة التي توقفت فجأة، وهم يشعرون بنفس شعور سارة تجاهه، ومن بينهم تقدم أحد أنصار عاطف باقتراح خطير مناسب للظروف الجديدة:

- عمر قد يتأخر.. ما رأيك لو وضعنا عاطف مكانه حتى يعود؟

لم ير حودة في ذلك حرجًا فهي لعبة، أو على الأقل لا يجد مبررًا لرفض الاقتراح، خاصة وأن صاحب الاقتراح قال: حتى يعود.. لكن أحمد كان له رأي آخر فتململ وأبدى انزعاجه وجهز نفسه لمعركة كلامية، لكن أغنته سارة الحائرة وكفته مؤنة المعركة، رغم أنها غير راضية عما فعله عمر، فقالت لحودة بحسم:

- عمر لن يغيب أكثر من الخمس دقائق كما قال.. ولن يحدث شيء لو انتظرنا هذه الدقائق..

امتثل حودة لرغبة سارة التي بدت جادة للغاية، فيكفي عمر أنه بذل لها الطرحة أفلا تبذل هي له دقائق؟!

لم يعترض الواقفون، وسكت عاطف وأنصاره على مضض.

❖ ❖ ❖

-٣-

وصل عمر إلى بيتهم لاهثًا مرهقًا.. وقف عمر أسفل البيت المكون من ثلاثة طوابق يتلاقط أنفاسه مترددًا لحظات، وقد قرر ألا يصعد إلى شقتهم عبر الطريق الشرعي الرسمي، وذلك كما تعود في مثل هذه الأوقات العصيبة خشية أن تمسك به أمه التي لو رأته فلن تتركه يخرج ثانية، هذا فضلاً عن العقاب الذي ينتظره منها بعد ما استولى على طرحتها.

انحنى عمر إلى سلم خشبي قصير ملقى تحت جدار البيت معد لأغراض أخرى، ولكن عمر يستخدمه في مثل هذه المأموريات ليصعد إلى شقتهم التي لا تبعد كثيرًا عن الأرض.. أمسك بإحدى عارضتيه حاول أن يرفعه.. يعلم أن السلم ثقيل عليه ويهدر كل طاقته.. لكن من أجل سارة يهون رفع السلالم وتسلق الجدران.. استطاع أن يرفعه نصف المسافة لكن قبل أن يركنه إلى الجدار أفلت من يده الصغيرة وسقط على الأرض محدثًا دويًّا.. فزع عمر وتراجع ملتصقًا بالحائط خشية أن تكون أمه قد سمعت هذا الدوي وقامت بتحليل الصوت وفسرت ملابسات الحادث ومن المستفيد منه وتوصلت إلى الجاني بكل يسر كعادتها.. مرت ثوان لم يطل أحد من النافذة ولم يسمع صوت أمه يناديه.. حمد الله،

التقط أنفاسه المتسارعة واستجمع قواه وانحنى على السلم ورفعه بكل قوته حتى أقامه ووضع مقدمته عند نافذة حجرة خليل المطلة على الشارع.. بدى عليه الإرهاق فتوقف قليلًا يستريح.. لكنه في صراع مع الزمن فنفض يده وبدأ في الصعود بسرعة.

وصل عمر إلى النافذة.. أراد أن يتأكد أن خليل بداخل حجرته؛ فنظر من ثقب بالشيش؛ فبدت حجرة خليل كأنها حجرة في عنبر سجن.. ذات أثاث متهالك، غير نظيفة ولا مرتبة، ويظهر بها مكتب صغير عليه كتب جامعية وأوراق مبعثرة، ثم يظهر له خليل مرتديًا لباسه الداخلي ممددًا على أريكته معلقًا ساقه على ركبته، وممسكًا بيده بمجلة يقرأها أو (يشاهدها) مسحورًا، وفي أصابع اليد الأخرى أمسك بسيجارة قد تآكل نصفها ولم يشعر بها.

طرق عمر النافذة بقوة؛ ففزع خليل بالداخل، ونهض واثبًا يريد أن يخفي المجلة التي بيده، فالتفت حوله يبحث لها عن مكان مناسب حتى يجده؛ فهداه تفكيره التقليدي أن يضعها تحت مرتبة الأريكة، فوضعها سريعًا واطمئن على خفائها.

عمر أعجبته حالة الفزع التي يراها على خليل فيعيد الطرق.. توقف خليل قليلًا يلقي نظرة على الحجرة من حوله يطمئن على حاله كاملًا، ثم تحرك ببطء نحو الباب يريد أن يفتحه، لكنه في الطرقة الثالثة أدرك أن الطرق على النافذة؛ فعلم أنه المشاكس عمر الذي ناداه من الخارج بمكر كأنه يريد أن يفضحه:

- افتح يا خليل.. زهرة أرسلت لك جوابًا..

خليل يفتح النافذة بسرعة، وعمر يعيد الجملة:

- أقول لك.. زهرة بنت عمك بكر أرسلت لك..

وضع خليل يده على فم عمر قبل أن يكمل جملته، وجذبه من ياقته حاملاً إياه إلى الداخل:

- فضحتني أيها المزعج..

همس عمر، وهو يشير إليه بالورقة التي أعطتها له زهرة، وقد تهدلت في كفه:

- زهرة بنت عمك بكر أرسلت لك هذه الرسالة.. وتريد الرد بسرعة.

تلقف خليل الرسالة بلهف، ثم فتحها وقرأها، ثم أعاد قراءتها وعمر يتابع، وهو يبدي تعجلاً، خليل يحك رأسه ولا يدري ماذا يفعل، وعمر يستعجله:

- أسرع يا خليل..

لم يعره خليل انتباهًا، وظل مطرقًا أمام الرسالة، فيقول عمر بفضول:

- ألا تخبرني ماذا في هذه الورقة؟

- ليس لك شأن

عمر اغتاظ من رد خليل رغم جميله عليه، فقال مستغلاً نفوذه:

- إن لم تخبرني لن أذهب بالرد

اضطر خليل لإخباره كذبًا:

- كان لها كتاب عندي فهي تريده.

عمر بالطبع لم يصدق لكنه يبلعها لعجلته، وينحني خليل إلى المكتب ويأخذ ورقة بيضاء، ويكتب الرد:

(زهرة .. ارفضي ذاك العريس فورًا كما رفضت السابقين.. أنت تعلمين أنني أحبك.. لكن ماذا أفعل؟.. ماذا تريدينني أن أفعل؟.. بصدق أنا لا أدري ماذا أفعل)؟!

أنهى الكتابة ووقف ينظر إلى الورقة: هل يضيف شيئًا؟ لم يجد إضافة أكثر مما قال، فخطف عمر الورقة من مكانه:

- يا عم خلّص

- سأنتظرك لتأتيني بالرد

- كلا أنا وعدتها بالعودة فقط

خليل وضع يده في جيب بنطاله يفتش عن مال فلم يجد.. فتوجه إلى أريكته ورفع المرتبة فظهر غلاف المجلة العاري فوضع المرتبة بسرعة.. ثم توجه نحو ملابسه المعلقة على الجدار وأنزل بنطالًا وفتش في جيوبه ثم أخرج نصف جنيه.. عمر يبلع لعابه ويقرر الرفض:

- كلا ليس لدي وقت.. سارة تنتظرني.. والأولاد سيأكلون وجهي..

استأنف خليل التفتيش فوجد نصف جنيه آخر.. خطفه عمر..

- سأحاول..

استدار عمر نحو الباب متعجلاً، لكنه تذكر وسيلة مواصلاته التي جاء من خلالها؛ فاستدار نحو النافذة وارتقاها برشاقة ليهبط على السلم القصير، ويسرع عائدًا.

❖ ❖ ❖

لم يستغرق عمر وقتًا طويلًا.. وصل حوش عم بكر، فرأى الأطفال من بعيد لا يزالون منتظرين قدوم سعادته.. دنا منهم، رمقته سارة فتنفست الصعداء بعد أن كاد يفلت منها زمام اللعبة وزمام قلبها، وصاح أحمد يستقبله غائظًا لأعدائه:

- ها هو قد جاء..

وصل عمر وهو يلهث.. توقف قليلًا أمام سارة يستأذنها، وهو يشير ناحية بيت عم بكر:

- سأعطي لها شيئًا..

ثم أومأ إلى حودة كبير اللعبة يعتذر إليه، بعد أن جعل رقبته «قد السمسمة»..

أسرع عمر ناحية بيت عم بكر، حيث تنتظر زهرة بالنافذة على شوق.

عاطف وأنصاره تابعوا الأمر بغيظ، فهم رأوا أن سلوك عمر هذا

استخفافًا بهم، فتقدم عاطف بطلب إحاطة إلى رئيس المجلس:

- هذا الأمر لا يصح.. فهو لا يعيرنا أي اهتمام، وقد تأخرنا كثيرًا عن اللعب، ولا بد من اتخاذ إجراء ضده.

تبادل حودة النظر مع سارة، وهو مقر أن الأمر بالفعل صار لا يحتمل، وقبل أن يجيب يلمح عمر متجهًا نحوهم، فيتخلص من حرجه:

- ها هو قد عاد وسينتهي الأمر

وصل عمر إليهم مسرعًا فاعتذر لهم جميعًا، وهو ينظر إلى سارة المغضَبة و يلقي على رأسها مفاجأته الجديدة:

- أرجوكم أعطوني خمس دقائق فقط، سأعطي شيئًا لخليل، وأعود بعجل.

ازدادت غضبة سارة ورمقته بنظرة قاسية، لكنها لا تنطق، والأطفال أنصار عاطف تصايحوا:

- كلا هذا لعب عيال، لن ننتظر ثانية.. لسنا بلهاء..

فاتخذ حودة قرارًا قاسيًا:

- عمر.. أنا سأعد إلى مائة لو لم تأت، سنتم اللعبة بغيرك..

نظر عمر إلى سارة مستعطفًا إياها كي تتدخل بنفوذها، لكنها هي الأخرى تأخذ موقفًا صلبًا، فقد ضاقت بحاله ذرعًا، فقالت مساندة لرأي حودة:

- وأنا موافقة..

وصاح عاطف وأنصاره:

- ونحن موافقون.

فتدخل أنصار عمر يرجون سارة وحودة:

- إذن نجعل العد إلى مائتين.

فصاح أنصار عاطف رافضين، فاشتعل بين الفريقين الشجار، حتى كادا أن يشتبكا، فصاح فيهم حودة، يعيد الزمام إلى قبضته، وهو لا يستطيع أن يخفي موالاته لعمر:

- كفى.. سأعد إلى مائة وخمسين.. وإن لم يعد خلالها عمر سننهي اللعبة، وتختار سارة من جديد.. موافقون؟

الجميع أخيرًا يتوحد صوتهم:

- موافقون.

حودة لا يضيع وقتًا ويبدأ العد:

- واحد..

نظر عمر إلى سارة كأنه يودعها ويؤنبها على قسوتها رغم أنه يفعل ذلك من أجلها، فترد عليه بنظرة تعني:

- كي تنفعك سفارتك لزهرة..

فيستدير ليبدأ مسيرة الاختبار، ولا يدري هل سينجح فيعود إلى كرسي العريس سريعًا، أم ستنتهي ليلته هذه كما انتهت سابقتها.

بدأ عمر خطواته بطيئة مطرقًا كأنه يمشي في جنازة، فاندهش الجميع لهذه المشية رغم سماعه للعد، ثم فاجئهم بقفزات رائعة كعادته في الجري فاختفى في ثوان من أمامهم، فتبعته سارة بنظرها تدعو الله ألا يخفق.

❖ ❖ ❖

-٤-

انحنى خليل على مكتبه يكتب رسالة وبجواره أخرى مكتوب فيها:

(أنا مندهشة.. ما هذه السلبية!.. أين كلامك لي؟!.. أين وعودك؟!.. أين حبك؟!.. هل ستقف تتفرج عليّ هكذا وأنا أضيع منك؟ تحرك.. افعل شيئًا من أجلي و إلا سأقرر الآن الموافقة)..

ينهي خليل كتابة ورقته ويلتفت إلى عمر، فيجده قد اعتلى النافذة يتأهب للهبوط على السلم، يدركه خليل ممسكًا بذراعه وفي يده ورقة الرد يتودد إليه أن يأخذها:

- أرجوك يا عمر.. سأعطيك جنيها آخر

- كلا إن سارة في انتظاري

سحب خليل بنطاله الذي يخرج منه النقود وأخرج الجنيه يغري به عمر، لكن عمر أصر على موقفه وأراد أن ينتزع منه ذراعه، فأخرج خليل جنيهًا آخر:

- خذ هذا أيضًا.

مع (هذا أيضًا) لان عمر قليلًا:

- ولكن سارة..

قاطعه خليل:

- لا تخف ستدركها..

سال لعاب عمر على الجنيهين فها هو المهر يوشك أن يكتمل، وكم سيكبر في نظرها ونظر الأطفال إن عاد لها بمهرها.

خطف عمر الورقة وقفز على السلم مسرعًا، يخترق الحواري كالبرق.. وصل إلى أقرانه الذين جلس بعضهم وانصرف بعضهم وانشغل الأكثرون بأمره وصار سباقه والعد عليه لعبة مسلية لهم ينتظرون في شوق هل سينهيها لصالحه أم يؤول الأمر إلى من آل إليه بالأمس بعد تأخر عمر.

اندهش الأطفال لسرعته الشديدة، انتبهت سارة إلى قدومه قبل أن يصل حودة منتصف العد، فاستقبلته بوجه باش شاكرة له مجهوده، لكنها فوجئت به ينحني بعيدًا عنهم متجهًا نحو نافذة زهرة مباشرة؛ ليتفادى نظرات العتاب والأسئلة التي لا ترحم.

قطع حودة التعليق على أي أحد خاصة عاطف وأنصاره المتحرقون غيظًا من عمر وحودة.. واستمر في العد البطيء المتواطئ مع عمر:

- اثنان وستون

وصل عمر نافذة زهرة، طرقها، فتحت زهرة بلهفة، أعطاها الورقة واستدار منصرفًا، قرأتها بسرعة، فاستوقفته قائلة:

- أرجوك يا عمر انتظرني سأعطيك الورقة الأخيرة

استدار عمر يقول:

- لا هذا مستحيل، فقاطعته:

- أرجوك وسأعطيك جنيهين آخرين.

عمر يحدث نفسه: يا الله ها هو المهر قد اكتمل وزاد جنيهًا.. والعد لم ينته.. قد يسعفني الوقت؟

كتبت زهرة رسالتها الأخيرة بانفعال:

- (لعنة الله عليك.. وعليّ أيضًا.. كنت أظنك رجلاً.. أنا نادمة على تلك العاطفة المزيفة.. الآن أيقنت أنك كنت تتسلى بي.. من فضلك من الآن انسني.. انس حتى اسمي.. أنا لغيرك.. أنت لا تستحقني.. وأنا أستحق خيرًا منك.. وداعًا يا نصف رجل! وهنيئا لي بالعريس الجديد).

أخذ عمر الورقة ووقف مترددًا برهة، وعينه ترنو نحو سارة والأطفال.

أرادت زهرة أن تقطع عليه تردده بأن مددت له الجنيهين.. فنظر إلى الجنيهين، ففكر قليلاً ثم جذب منهما جنيهًا واحدًا، فاندهشت، فقال:

- يكفيني هذا.. فبه يكتمل مهر سارة..

لم تفهم، وانطلق..

لم يضع وقتًا واتجه مباشرة تجاه بيتهم.. مر بمحاذاة سارة التي

تراقبه وقد اشتعلت نارًا، لكنه لم يلتفت إليها، وهو يسمع حودة مستمرًّا في العد:

- سبعة وثمانون..

وعاطف يصيح:

- هذا ظلم بين.. أنت بطيء في العد يا حودة.

حودة لا يعيره اهتمامًا، ويقول مستفزًّا:

- سبعة وثمانون ونصف..

فيضحك الأطفال، إلا سارة التي ألقت بنفسها على مقعد العروس مغتاظة، وقد أدركت أنها أخطأت الاختيار.

❖ ❖ ❖

-٥-

قبضت يد عمر على خمسة جنيهات جديدة من خليل وقد مد إليه يده بورقة فيها رد أخير، وهو يقول:

- لكن سارة

خليل يعظه:

- ستنتظرك يا عمر ما دامت تريدك، وستضحي من أجلك بأي شيء..
- ولِمَ تضحي من أجلي وأنا لم أضح من أجلها؟!
- لأنك أنت الرجل وهي المرأة
- وماذا يعني ذلك؟
- أنت الذكر وهي الأنثى
- وماذا يعني ذلك؟
- تستطيع أن تضع رحيقك على أكثر من «زهرة»، ورغم ذلك أفردتها بحبك..
- لا أعتقد أن العاجز عن صنع الرحيق، يستطيع أن يلقح زهرة، فضلًا عن زهرات أُخريات..
- وماذا يعني ذلك؟

- يعني أن «الزهرة» سيرحقها من هو أفضل منك..

ثم يضع عمر الرسالة في جيب خليل ومعها الخمس جنيهات، وهو يقول:

- ادخرها لنفسك.. أظنك لا تملك غيرها، أما أنا فقد اكتمل مهر زهرتي.

قبل أن يستدير عمر فوجئا بصوت دوي بالخارج.. التفت عمر ناحية النافذة مصعوقًا.. وقد أدرك أن السلم قد خانه وسقط.

صعق عمر.. وقف يفكر ماذا سيفعل؟.. صار بين خيارين كلاهما حنظل: إما أن يخرج من الباب أو أن يقفز من النافذة.. سريعًا أدرك أن احتمال النجاة في القفز أكبر؛ لأن أمه لو أدركته فلن تتركه حتى تخلص على جسده القديم والجديد، وبالطبع تستطيع منعه من الخروج بل ربطه في الفراش.

دنا عمر من النافذة وهو يبلع لعابه.. نظر منها إلى أسفل يستكشف الخريطة ويقيس المسافة، فهاب ارتفاع المكان فتراجع.. لكنه تقدم ثانية ثم خاف وتراجع..

يردد بداخله: المكان عال!.. قد تنكسر قدمي.. قد يندق عنقي..

تخيل سارة بجوارها عاطف قد انفرج ثغره عن أسنان قبيحة..

فصاح - وهو يقفز:

- لعن الله قد..

فوجئ خليل بقرار أخيه المجنون فأسرع إليه يمنعه، لكن عمر كان قد قفز بالفعل.. سقط عمر سقطة قوية اصطدم فيها بمؤخرة السلم فأصيب ساقه، وتابعه خليل من النافذة في قلق:

- عمر.. هل أنت بخير؟

شعر عمر بألم شديد في ساقه، لكنه تحامل ونهض منتصبًا:

- إلى الآن.. نعم..

استأنف عمر مشواره، وهو يعرج على أحد ساقيه.. تحامل وأخذ يتقافز كالأرنب.. لكنه في أحد المنعطفات تعثر فسقط على الأرض متألمًا، متأوهًا.. أمسك بساقه يتحسسها وهو يكاد يبكي من الألم.. لكنه تذكر العد فنهض بصعوبة ووقف قليلًا.. تخيل نفس الصورة (سارة بجوارها عاطف قد انفرج ثغره عن أسنان قبيحة).. برقت عيناه وتنفس الصعداء وتناسى أن بقدمه إصابة.. ثم انطلق كحصان عدْو يسرق أنفاسه من الهواء ولا يسعفه الهواء.. لكنه لا يتوقف..

❖ ❖ ❖

-٦-

وصل أخيرًا إلى مدخل الحوش.. توقف مصعوقا وجزعه يترنح من شدة مطاردة الأنفاس.. يا لهول الخيانة!.. فما حدث بالأمس يتكرر ثانية.. فقد انتهى العد منذ ثوان وقد اقترب عاطف من سارة.. إنه يقف بمحاذاتها وحودة يجهز لإعلان مراسم الحفل..

تثاقلت قدماه في سيره.. شعر بألم شديد في ساقه الذي شمر عنها بنطاله.. رآه بجوارها يحاول أن يشبك ذراعه في ذراعها.. دمعت عيناه وهو يقترب ببطء، غرق الأطفال وسط الضجيج، سارة وحدها تلتفت خلفها كأنها كانت تنتظره.. تراه واقفًا عند بداية الحوش وقد شمر عن ساقه.. عيناه صوبت سهمًا نحوه فأصيبت: آه.. لقد تعجلت.. بئست العروس أنا.

انتبه الجميع لقدومه بانتباه سارة.. توقفت فردوس عن شدوها..

عمر لا يعرف ماذا يفعل.. لكنه يعرف جيدًا أن سارة لن تكون لغيره، ولو كلفه ذلك أي شيء.. زم شفتيه على دموعه والتقط أنفاسه مقررًا أمرًا وانحنى إلى الأرض فالتقط عصًا خشبية من أسفل قدمه.. وهجم على الأطفال يحول بينهم وبين سارة، كأنه قد أصابه الجنون..

- إن دنا أحد من كرسي العريس سأصيبه..

تراجع الأطفال من أمامه، وفر عاطف من جوار سارة إلى وسط الجمهور المذعور.. فالمسألة صارت قضية وقد يتحول العرس إلى معركة وصار غرماء عمر في ورطة حقيقية، فدنا حودة من عمر وهو يهدئه:

- أنزل هذه العصا يا عمر.. إنها مجرد لعبة..

عمر يرد في غضب:

- كلا.. ليست مجرد لعبة.. سارة عروستي أنا.. ولن يأخذها غيري..

الموقف يروق لكل البنات اللاتي وقفن معجبات بعمر خاصة من تعدين الثانية عشرة، وفردوس تصيح سعيدة فهي يعجبها مثل هذه المواقف:

- أنا متضامنة مع السيد عمر..

سارة كأنها في حلم: يا لروعة فارسي!.. كم ظلمتك!.. ظننتك قد ضحيت بي.. يا لخجلي!

لكنها تحتفظ بأمواج الإعجاب التي اجتاحتها، وتبادر لتلتقط من عمر تبريرًا لغيابه، فتقول في صوت هامس متواضع:

- ولكنك تركتني.. ضحيت بي..

يجدها عاطف وأنصاره المفزوعون فرصة قد ينالوا بها حقهم:

- نعم لقد تركت هذه المسكينة بلا عريس..

فرد عمر:

- كنت آتي بمهرها..

فيرد عاطف من خلف أحد أنصاره:

- أنت تكذب يا عمر.. طلبنا المهر من أحمد فأخبرنا بأنك لا تملكه..

وهنا يبرز عمر الجنيهات الخمسة :

- ها هو المهر.. عملت به لتوي..

فصاح أنصار عمر فرحين منتشين:

- عو مر.. عو مر..

فطأطأ عاطف رأسه منسحبًا، فاقترب منه أحد أنصاره الأوفياء:

- لا زال من حقك يا عاطف أن تنافسه، وتختار هي من بينكما..

يقول عاطف في حزن عميق:

- كلا يا صديقي.. انتهت اللعبة لصالحه..

- لكن تستطيع أن تنالها في الليلة القادمة.

- هذا إذا انسحب عمر..

ثم انصرف عاطف بهدوء، يتبعه اثنان من أنصاره دون أن يشعر بهم أحد، واستأنفت فردوس بدورها الحفل المعطل، وأبرز أحمد الطرحة لعمر، واتجهت سارة نحو كرسيها؛ فدنا منها عريسها، وألبسها طرحتها، وهي تستحي أن تنظر في عينيه فأطرقت إلى

الأرض، فلفت انتباهها ساقه الدامية، فقالت:

- إنك مصاب..

فيبتسم قائلًا:

- من أجل الزهرة..

ثم ترن زغرودة تعلو على زغاريد فردوس وفرقتها، آتية من بيت عم بكر، فيلتفتون نحو مصدرها فيعلمون أنه من بيت عم بكر، ثم تخترق دائرتهم أخت زهرة الكبرى سعيدة وفي يدها صينية شربات كبيرة توزعها عليهم:

- خذوا يا أولاد.. شربات بالمجان.. زهرة بنت عمكم بكر خُطبت الليلة..

التفت عمر إلى هناك نحو نافذتها فوجدها قد ارتفقت النافذة تتابع أحداث لعبتهم باسمة، فعندما رأته ينظر نحوها أشارت إليه بيديها محيية، تردد في رد التحية، ثم رد الإشارة بمثلها، وسارة تتابع تحاول أن تفهم..

❖ ❖ ❖

هجم الأطفال على الشربات كأنهم ظمأى حرب، وعمر شرد بذهنه يتذكر شخصًا ما مشفقًا وساخراً في الوقت نفسه، فقطعت سارة عليه حبل خاطره، وهي تقدم له كوبًا من الشربات:

- ما بك؟

يتناول عمر كوب الشربات من يدها وهو يسألها:

- تُرى يا سارة.. لو كنا كبارًا وأراد أحد أن يتزوجك دوني كنت ستقبلين؟

فتصمت حياء ولا تجيب، فيقول:

- معك الحق ألا تجيبي.. فعليّ أنا الإجابة.. الرجال بيدهم الإجابة..

ثم يرتشف رشفة من كوب الشربات، وقد رنا إلى تلك النافذة. فيرى زهرة قد أغلقت نافذتها لتذهب لعريسها..

❖ ❖ ❖

الفهرس

الكابتن..... ٧
حضن القطار..... ١٧
فاترينا..... ٢٥
أنا الملك..... ٣٧
نوبة عشق..... ٤٣
واحد طنطا..... ٤٩
ضريح..... ٥٩
عروستي..... ٦٥